العلماء العزاب

الذين آثروا العلم على الزواج

تأليف

عبد الفتاح أبو غدة


بسم الله الرحمن الرحيم


العلماء العزاب
الذين آثروا العلم على الزواج

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

التقدمة

الحمدُ لله الذي جَعَل الزَّواجَ سُنَّةً من سُنَن الإسلام ، وحَضَّ عليه ، ونَدَبَ إليه ، وأَمَرَ بتحصيل العلم والازديادِ منه ، وفَضَّلَ به بعضَ الناسَ على بعض ، ورَفَع مَقامَهم لديه ، فقال في كتابه المبين : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتُوا العِلمَ دَرَجاتٍ ﴾ . و﴿ قُلْ هل يَسْتَوِي الذين يَعْلَمون والذين لا يَعْلَمون ﴾ . ﴿ وقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْماً ﴾ .

والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمدٍ البشيرِ النذير ، والسِّراجِ المنير ، الذي بَعَثَه الله للعالمين أحسَنَ أُسْوَة ، وعلى آله وصحبِهِ الذين كانوا من بعدِهِ للناس أفضَلَ قُدْوَة .

وبعدُ فهذا موضوعٌ طريف ، ومبحثٌ مُنِيف ، تحدَّثتُ فيه عن العلماء العُزَّاب ، الذين آثَرُوا العلمَ على الزَّواج ، لم أقف على من دَوَّن فيه شيئاً من قبل ، فرأيتُ أن أكتبَ فيه هذه الكلمات ، وأجمعَ فيه هذه الصفحات ، وسمَّيتُه : « العلماء العُزَّاب الذين آثروا العلمَ على الزَّوَاج » .

اقتَصرتُ فيه على ذكر أكابر أئمةِ العلم والدين ، من المفسِّرين ، والقُرَّاء ، والمحدِّثين ، والفقهاء ، والقُضاة ، والمفتين ، والأدباء ، والمؤرِّخين ،

والنحاة ، واللغويين ، والزُّهَّاد ، والعُبَّاد ، ممن عُرِف فضلُهم ، واشتَهر عِلمُهم ، ووَهَبُوا حياتَهم كلَّها للعلم ، وعاشوا له عُزَّاباً متفرغين ، وحرموا أنفسهم من اغلى مُتَع الحياةِ المشروعة : مُتعةِ الزَّواجِ والنَّسْل والأولاد ، بُغْيَةَ الازديادِ من العلم وخِدمةِ الدينِ ونفعِ المسلمين .

وأردتُ من جَمْع هذه الصفحات ، وكتابةِ هذه الكلمات ، أن يُدرِك شبابُنا اليوم : غلاءَ العلم عند الآباءِ والأجداد ، وشِدَّةَ تعلُّقِهم به وفَنَائِهم فيه ، وعظيمَ إيثارِهم له على ما سِوَاه من أُنسِ الحياة وتلبيةِ الاحتياج الفِطري ، فيَعْرِفُوا لهم فضلَهم ، ويَقْدِرُوا لهم قَدْرَهم ، ويَتبيَّنُوا قيمةَ العلم عند أسلافِهم المتقدمين ، فتَتَبارَى فيه هِمَمُهم ، وتَتَنافَسَ في تحصيلِه عزائمُهم ، فيُعيدَ الأحفادُ أمجادَ الأجداد ، ويكونَ من ذلك الخيرُ الكثيرُ للإنسانية والناسِ جميعاً .

وقدَّمتُ لهذا الموضوع بمقدِّمة تَتَضمَّنُ أقوالَ العلماءِ والفقهاءِ في حُكمِ تعزُّبِ هؤلاء ، فإنَّ عُزُوبَتَهم مَدْعاةُ استغرابٍ وتساؤلٍ عند كل من وَقَف عليها ، فينبغي أن تُعرَف مُسوِّغاتُها عندهم .

وأسألُ اللَّهَ تعالى أن يَتقبَّلَ مني هذا الجهد ، ويَدَّخرَه لي في حِرزِ القبولِ عنده ، ويَنفَعَ به كلَّ مستفيد ، وأن يُغدِقَ على هؤلاء العلماء شآبيبَ الرحمةِ والرضوان ، ويُعَوِّضَهم عما آثَرُوا به وحَرَمُوا أنفُسَهم منه أفضلَ ما عنده في فراديس الجِنان ، ويَجمعَنا معهم في مَقْعَدِ الصِّدقِ لديه ، إنه وليُّ ذلك ، والقادرُ عليه ، والمنعِمُ به سبحانه ، والحمدُ لله رب العالمين .

وكتبه

في مدينة تلْسَا من أمريكا الشمالية صباح الأحد ٢٨ من رجب سنة ١٤٠١ عبد الفتاح أبو غدة

مقـدّمة
حَولَ عُزوبَة هؤلاء العُلَماء الكِبَار

الزَّوَاجُ في الإسلام مرغَّبٌ فيه أتمَّ الترغيب ، ومحضُوضٌ عليه آكد الحَضّ ، إلى جانب أنه أمرٌ فِطري مركوزٌ في الطبيعة الإنسانية ، يَسعى الإنسانُ إليه بدافع الفطرة ، وهو شَطْر هامٌّ كبير من الحاجة الأصلية في هذه الحياة ، محقِّقٌ لاكتمال الذات ، وإنشاء الذرية ، وبقاءِ النَّسل والنوعِ الإنساني ، وعمارةِ الكون .

وقد أمَرَ الشرع الحنيف به أمراً أكيداً لمن خَشِيَ العَنَت والزنى ، وعدَّه بعضُ الأئمة الفقهاء من قسم العبادات ، لما يترتب عليه من استمرار النسل الصالح في الوجود ، وتلقِّيهِ الإسلامَ عن الآباء ، وتبليغِهِ إلى الأبناء ، وهكذا حتى يَرِثَ اللّهُ الأرضَ ومن عليها ، ولِمَا لَهُ أيضاً من آثار طيبة على سلوك الإنسان في طُهره وعفافه ، وكمالِ دينه واستقرارِ نفسه ، وسلامةِ خواطره ، فإن غريزة الشهوة إذا استَيْقَظَتْ في الإنسان العَزَب ، شَتَّتَتْ عليه الفكرَ والرأي ، وأقلقَتْ منه العينَ والنَّفْس ، وقد تُزَحزِحُه عن الجادَّة والاستقامة ، وتَهوِي به إلى السقوط في هُوَّةِ الإهانةِ والهلاك[1] .

---

(١) نقل الحافظ المرتضى الزَّبيدي في كتابه « تاج العروس : شرح القاموس » ٥ : ٢٦٥ ، في مادة (نعظ) ، عن التابعي الجليل العابد الزاهد أبي مسلم الخَوْلاني الشامي ، الذي كان يُلقَّبُ : حكيمَ الأمة ، أنه قال رحمه الله تعالى :

« يا معشر خَوْلان ، أنكحوا نساءَكم وأيَامَاكم ، فإنَّ النَّعْظَ ـ وهو شدةُ تَوَقان النفس للنكاح ـ أمرٌ عارمٌ أي أمرٌ شديد ، فأعِدُّوا لـه عُدَّة ، واعلمـوا أنه ليس لمُنْعِظٍ رأي » . =

فلذا كان الزواج ـ إلى جانب أنه مُتعة مشروعة ـ أمراً أساسياً وحاجةً أصلية من حاجات الإنسان في الحياة ، يَصعُبُ عليه التخلي عنها إلا لشوقٍ غلَّابٍ مُحرِق ، أو لتعلُّق شديدٍ بعزيزٍ غالٍ على النفس جداً ، يَفوقُ تعلُّقَها بالزواج ، ويزيدُ عليه تملُّكاً للقلب واستيلاءً على الخاطر ، مثل طلب العلم في بعض العلماء ، والقيامِ بالجهاد عند بعض المجاهدين ، وتحصيلِ عُلْيا الرغائب لدى ذوي النفوس الطمَّاحة الشمَّاء .

ومن السهل أن ندرك أن التبتل(١) والانقطاع عن الزواج اختياراً : شِدَّةٌ من أكبر الشدائد في حياة الإنسان العالم ، يَفقِدُ بها الأُنسَ الرُّوحي ، والسُّكونَ النفسي ، ويَتحمَّلُ معها مَشاقَّ العُزُوبة في شؤون الطعام والشراب والنظافةِ وخدمةِ البيت والمسكن ، ويُحرَمُ بسببها من رعاية المرأة وحنانها عند نزول الأمراض والأسقام عليه ، وفي وقتِ حلولِ الشيخوخةِ ومتاعبها لديه ، وهذه شدائدُ متراكمة ، ومَشاقٌّ متعاظِمة ، لا يَتحمَّلُها إلا من رأى الصبرَ عليها ، أهونَ عليه من فَقْدِ الازديادِ من العلم وتحصيلِه وبَثِّه ، فآثَرَ ما يراه له

= انتهى . والمُنْعِظ : من اشتدَّ تَوَقانُ نفسِه للنكاح .

وهذا كلامٌ وجيهٌ للغاية ، فإنَّ الرأي يَضْعُفُ ويتشتَّتُ بأقلَّ من هذا ، ومن الكلام المأثور الذي نقله ابن قتيبة في « غريب الحديث » ٣ : ٧٤٩ ، والزمخشري في « الفائق في غريب الحديث » ١ : ٣٠٠ ، وابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث والأثر » ١ : ٣٧٨ و٤١١ و٤١٦ : « لا رأيَ لحاقِنٍ ولا حاقِبٍ ولا حازِقٍ » .

والحاقِنُ : الذي حَبَس بوله . والحاقِبُ : الذي حَبَس غائطه . والحازِقُ : الذي حَزَق قَدَمَه أي عَصَرها وضَغَطها بلبسه الحذاءَ الضيِّق . فإذا كان هؤلاء لا رأيَ لهم ، فمن بابِ أولى : لا رأيَ لمُنْعِظ ، وهو من اشتدَّ توقانُ نفسِه للنكاح ، لأنه قَلِقٌ نفساً وقلباً ولُبّاً .

(١) يقال في اللغة : تَبَتَّل فلان إذا انقطع عن الزواج وتركَهُ زُهداً فيه . ومثلُه : تأَبَّل فلان . . . ، قال الزمخشري في « أساس البلاغة » في (بتل) : « وقيل لمريم عليها السلام : العَذْراءُ البَتُول ، لانقطاعها عن الأزواج ، ثم قيل لفاطمة رضي الله عنها : البَتُول ، تشبيهاً لها بمريم في المنزلة عند الله تعالى » .

أغنَمَ وأعظمَ ، على ما يراه له ألذَّ وأنعم ، كشأنِ العلماء العُزَّاب الذين سأذكُرُ أخبارَ طائفةٍ منهم ، وهم من أساطين العلم الكبار .

وقبل أن أسوقَ تلك الأخبار ، أستحسنُ أن أتعرَّض إلى بحثِ المسوِّغ الذي يسببه عَزَب هؤلاء العلماءُ الأئمةُ عن الزَّواج إلى العُزوبة ، مع علمهم بأحكام الزواج وفضلِه ، ومخاطِرِ العزوبة ومتاعِبها ، وخصوصاً أنه لم يَرِد نصٌّ صحيح عن الشارع يُشجِّعُ على العزوبة[1] ، فما الذي حَدَا بهم إلى تركِ الزواج ؟ مع أنهم لا يَجهلون أحكامَ النكاح والمرغِّباتِ فيه .بل الفقهاء منهم قرَّروها في كتبهم ومؤلفاتهم .

والجوابُ عن حالهم هذه ـ والله أعلم ـ أنها مسلكٌ شخصي فَرْدِي ، اختاروه لأنفسهم ، مـايَزُوا فيه ببصيرتهم الخاصَّةِ بين خيرِ الزواج وخيرِ العلم الذي يقومون به ، فرجَحَ لديهم خيرُ العلم على خير الزواج لهم ، فقدَّموا مطلوباً على مطلوب ، ولم يَدْعُوا أحداً من الناس إلى الاقتداءِ بهم في هذا المسلك، ولا قالوا للناس : التبتُّلُ للعلم أفضَلُ من الزواج ، ولا ما نحن عليه

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية في « المنار المنيف في الصحيح والضعيف » ص ١٢٧ « أحاديثُ مَدْح العُزوبة كلُّها باطل » . وقال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة » ص ٢٠٣ « حديثُ : خيرُكم في رأس المئتين الـخفيفُ الحـاذِ ـ ويُروَى : خفيفُ الحاذِ ـ ، قيل : يا رسول الله ، وما خفيفُ الحاذِ ؟ قال : من لا أهلَ له ، ولا مال . رواه أبو يعلى في « مسنده » من حديث رَوَّاد بن الجرَّاح ، عن سفيان الثوري ، عن منصور ، عن رِبْعي ، عن حُذَيفة مرفوعاً ،وعِلَّته رَوَّاد، ولذا قال الخليلي : ضعَّفه الحُفَّاظ فيه وخطَّؤوه ، انتهى . فان صحّ فهو محمول على جواز الترهُّب أيامَ الفتن ، وفي معناه أحاديث كثيرة كلُّها واهيةٌ، منها . . . ومنها . . . ومنها . . . » .

والحاذُ بتخفيف الذال المعجمة : الظَّهْر ، وأُريدَ بِخفَّةِ الحاذِ هنا مجازاً : خِفَّةُ المال والعِيال . وجاء تفسيرُ الحاذِ في الحديث عند الذهبي في « ميزان الاعتدال » ٢ : ٥٥ بلفظ « قال : من لا أهلَ له ، ولا وَلَد » .

أفضل مما أنتم عليه .

ولا ذهبوا في ترك الزواج مذهبَ بعض الحكماء والفلاسفة ، القائلين بأن إيجاد الولد جنايةٌ عليه ! قال ابن خلكان في «وفَيات الأعيان » ١ : ٣٤ ، في ترجمة أبي العلاء المَعَرِّي (أحمد بن عبد الله) الشاعر اللغوي الفيلسوف المشهور : « وبلغني أنه أوصى أن يُكتَب على قبره هذا البيتُ :

هــذا جــنــاه أبــي عــلــيَّ وما جَــنــيــتُ عــلى أحد

وهذا البيت متعلق باعتقاد الحكماء ، فانهم يقولون : إيجادُ الولد وإخراجُه إلى هذا العالم جناية عليه ، لأنه يتعرض للحوادث والآفات » . انتهى .

حاشاهم من هذا كلِّه، وإنما اختاروا تركَ الزواج لأنفسهم اختياراً فردياً، ووضَحَتْ لهم السلامةُ من غوائل العُزوبةِ وشُرورِها ، بما حفظهم الله تعالى به من التقوى والإيمان والعلم .

وما عَزَب بهم عن الزواج المركوزِ في الفطرة ، إلى العزوبةِ التي لا تُجهَلُ مصاعِبُها ومتاعِبُها ، إلا الشوقُ المتزايدُ للعلم الذي اشتَعَلَتْ هِمَمُهم به تعلُّقاً وحُبّاً وتحصيلاً ، وجمعاً ونشراً وتدويناً ، حتى غدا العلمُ منهم بمنزلة الرُّوح من الجسد ، والماءِ من العُوْد الأخضر ،والهواء من حياة الإنسان ، لا يستطيعون له فِراقاً ، ولا يُطيقون التنازلَ عن تحصيل أدنى قِسطٍ منه يُمكِنُهم تحصيلُه ، فصار العِلمُ منهم بموقع الغِذاء والدَّواءِ جميعاً .

ورأوا الزواج ـ على خيره وفضله ـ سبباً شاغلاً كبيراً عن تحصيل هذا المطلبِ الشريفِ المُنيف ، وقَيْداً معوِّقاً لهم عن التفاعل والاحتراقِ بالعلم والتحصيلِ الحبيب العزيز ، فآثَروا الخيرَ الأعمَّ على حَظِّ النفس الخاصّ بهم في الجملة ، اجتهاداً منهم أنَّ ذلك أغنَمُ لهم تحصيلاً ، وأفضلُ عليهم للازدياد من رضوان الله سبيلا .

وقد روى الإمام أحمد في « المسند » ٦ : ٤٠٩ ، والترمذي في « سننه » ٣ : ٢١٢ في أوائل (أبواب البِرّ والصِّلَة) ، بسند فيه انقطاع ، عن الصحابية الجليلة خَوْلَة بنت حَكيم رضي الله عنها ، أنَّ رسول الله ﷺ خَرَج مُحتَضِناً أحَدَ ابنَيْ ابنتِه ، وهو يقول : « واللهِ إنكم لَتُبخِّلون وتُجَبِّنون وتُجهِّلون ، وإنكم لمن رَيْحانِ الله » .

وجاء في « المستدرك » للحاكم ٣ : ٢٩٦ و« مجمع الزوائد » للهيثمي ٨ : ١٥٥ « عن الأسود بن خلف رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه أخَذَ حَسَناً فقبَّله ، ثم أقبَل عليهم فقال : إنَّ الوَلَد مَبْخَلةٌ مَجْهَلةٌ مَجْبَنة . رواه البزار ، ورجاله ثقات » . انتهى . ولفظ رواية الحاكم في « المستدرك » : « إنَّ الوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ مَحْزَنَة » .

قال الزمخشري في « الفائق » ١ : ١٨٥ « معناه أن الولد يُوقع أباه في البُخل ، إبقاءً على مالِه له ، وفي الجهل ، شُغلاً به عن طلب العلم ، وفي الجُبن ، خوفاً من أن يُقتَل فيَضيع ولدُه بعدَه ، ـ وفي الحُزنِ ، إذ يَحْزَنُ لأمرِه وشأنِه ـ . وقولُه : (وإنكم لمن رَيحانِ الله) يعني أنهم يُشَمُّون ويُقبَّلون ، فهم من جملةِ الرياحين التي أنبتها الله » انتهى .

وقد صَحَّ عن سيدنا عمر رضي الله عنه قولُه : تفقَّهوا قبلَ أن تُسوَّدُوا . علَّقه البخاري جازماً به في « صحيحه » ١ : ١٥١ ، في كتاب العلم ، في (باب الاغتباط في العلم والحكمة) . وأخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي في « الشعب » وغيرِها ، عن طريق محمد بن سيرين ، عن الأحنف بن قيس ، قال : قال عمر ، فذكره ، وإسناده صحيح ، قاله الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١ :١٥١ والسخاوي في « المقاصد الحسنة » ص ١٥٨ .

وفي « القاموس » في (سود) : « التسوُّدُ : التزوُّجُ » . قال شارحُه المرتضى الزَّبِيدي في « تاج العروس » ٢ : ٣٨٥ عَقِبَه : « وفي حديث عمر

ابن الخطاب رضي الله عنه : تَفقَّهوا قبل أن تُسوَّدوا . قال شَمِر : معناه تعلَّموا الفقه قبلَ أن تُزوَّجوا ، فتصيروا أربابَ بيوت ، فتُشغَلُوا بالزواج عن العلم ، من قولهم : استَادَ الرجلُ إذا تزوَّج في سَادَة » . انتهى كلام الزبيدي .

وهذا الذي قال شَمِر بعضُ ما يَصدُق عليه قولُ سيدنا عمر ، فقد فسَّر أكثرُ العلماء (التسوُّد) في قول عمر بالرئاسة ، ومنهم أبو عُبَيد في « غريب الحديث » ٣ : ٣٦٩ ، فقال : « يقول : تعلَّموا العلم ما دمتم صغاراً ، قبل أن تصيروا سادةً رؤساءَ منظوراً إليكم ، فان لم تَعلَّموا قبلَ ذلك استحييتم أن تَعلَّموه بعدالكِبَر ، فبقيتم جهالاً تأخذونه من الأصاغر ، فيُزرِي ذلك بكم » . انتهى .

ونَقَل الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » تفسيرَ أبي عُبَيد هذا وأقرَّه ، ثم قال : « وفسَّره شَمِر اللغوي بالتزوج ، فانه إذا تزوَّج صار سيدَ أهله ، ولا سيما إذا وُلِدَ له . ولا وجه لمن خَصَّ قول عمر بالتزوج ، لأن السيادة أعم منه ، فانها قد تكون بالتزوج ، وقد تكون بغيره من الأمور الشاغلة لأصحابها عن الاشتغال بالعلم » . انتهى .

فاستُفِيد من أحد التفسيرين لقول سيدنا عمر ، أنَّ الزواج مَشغلة عن العلم ولا ريب .

قال الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى ، في كتابه « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » : ويُستحَبُّ للطالب أن يكون عَزَباً ما أمكنه ، لئلا يَقطعَه الاشتغالُ بحقوق الزوجية وطلبِ المعيشة عن إكمال الطلب . وقال سفيان الثوري : من تزوَّجَ فقد رَكِبَ البحر ، فان وُلِدَ له ولد فقد كُسِرَ به ـ المركب ـ !وبالجملة : فتَرْكُ التزوُّج لغير المحتاجِ إليه أو القادِرِ عليه ، ولا سيما للطالب الذي رأسُ مالِه جَمْعُ الخاطر ، وإجمامُ القلب ، واشتغالُ الفكر ـ أولى ـ » . انتهى من كتاب « تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم

والمتعلم » للقاضي بدر الدين ابن جماعة الحَمَوي ثم المصري ص ٧٢ .

وقد تحدَّث الإمام ابن الجوزي في كتابه العُجَاب : « صيد الخاطر » ص ١٧٧ ، في الفصل ١٢١ ، عما يَحتاج إليه المتعلم لتحصيل العلم ، وعن أفضل وسائل الحفظ ، وعن أفضل الأوقات ، والأماكن ، والأحوال ، للحفظ ، وعن أفضل ما يُحفظ ، ثم قال : « وأختارُ للمبتدىء في طلب العلم أن يدافع النكاح مهما أمكن ، فإن أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تمَّتْ له أربعون سنة ، وهذا لأجل جَمْع الهَمِّ - أي للعلم - » . انتهى .

ومصداقاً لما أشار إليه الخطيبُ البغدادي والإمامُ ابن الجوزي ، فقد تبرَّم غيرُ واحد من العلماء المحترقين بالعلم ، بزواجهم السعيد ، لِمَا فات عليهم به من ألوان العلم ولَذاذةِ العبادة التي كانوا عليها قبلَ الزواج ، فرأوه ابتلاءً ورَزِيَّة !

جاء في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ٣ : ٨٢٠ ، في ترجمة الإمام الفقيه الحافظ الكبير الرحَّال (ابن زياد النيسابوري) ما يلي : « الحافظُ المجوِّدُ العلامة أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد بن واصل النيسابوري ، الفقيه الشافعي ، صاحب التصانيف ، ولد سنة ٢٣٨ ، ومات سنة ٣٢٤ .

قال الحاكم : كان إمامَ عصره من الشافعية بالعراق ، ومن أحفظِ الناسِ للفقهيات واختلافِ الصحابة . وقال الدارقطني : ما رأيتُ أحفظَ من ابن زياد ، كان يَعرف زياداتِ الألفاظ في المتون ، ولما قَعَد للتحديث قالوا : حدِّثْ ، قال : بل سَلُوا أنتم ، فسُئل عن أحاديث فأجاب فيها وأملاها .

قال يوسف القوَّاس : سمعتُ أبا بكر النيسابوري يقول[1] : تَعرِفُ من

---

(١) وقع في « تذكرة الحفاظ » هكذا (سمعتُ أبا زكريا النيسابوري) . والتصويب من « المنتظم » لابن الجوزي ٦ : ٢٨٧ ، و « العِبَر » للذهبي ٢ : ٢٠٢ ، وعبارتُهما « قال=

قام أربعين سنةً لم يَنَمْ الليلَ ، ويَتقوَّتُ كلَّ يوم بخمسِ حَبَّات ، يُصلِّي صلاةَ الغداةِ على طهارةِ العِشاءِ الآخِرة ؟ ثم قال : أنا هو ، وهذا كلُّه قبلَ أن أُعرِف أمَّ عبد الرحمن ، أيش أقولُ لمن زَوَّجَنِي ؟! ثم قال : ما أرادَ إلا الخيرَ » . انتهى .

ولا يُمكِنُ أحداً منا أن يُنكِرَ أن العلائق إذا كَثُرتْ شَغلَتْ عن العلم وتحصيله . وعلائق الزَّواج والزوجةِ والأولادِ وما إليها من أقوى الشواغل إن لم نقل : من القواطع عن العلم عند كثير من الناس ، حتى قال الإمام بِشْرٌ الحافي الكلمةَ المشهورة في هذا المعنى : « ضاع العلمُ في أفخاذِ النساء » ، كما في كتاب « المصنوع في معرفة الحديث الموضوع » للعلامة علي القاري ص ١٢٠ .

وتُروَى هذه الكلمة بلفظِ « ذُبِحَ العلمُ بين أفخاذ النساء » . إشارةً إلى أنَّ كثيراً من العلماء ، وقَفَ بهم الزواج وما يتصل به من مُتَعِه أومسئولياته ومشاغِلِه بالأولادوغيرهم ،عن متابعة العلم ، فضَمَر العلمُ لديهم واضمحل !

ولا شكَّ أنَّ الزواج قَيْدٌ ثقيل بِمسئولياتِهِ المادية ، ومسئولياتِهِ المعنوية ، وبالانعطافاتِ التي يُسَبِّبُها للانصرافِ عن العلم أوقاتاً كثيرة ، أو إلى الأبد ، كما هو معلوم لكل متزوِّج صاحبِ عِلم ، يُحبُّ العلمَ ، ويُتابعُه ، ولكل متزوِّج صُرِف عن العلم ، وحُرِم منه ! .

ومن طريف ما نُقِلَ من التقييد بالزواج : ما حكاه الإمام تقي الدين السبكي في كتابه « ترتيب ثقاتِ العِجْلي » ، في ترجمة أحد أئمة المحدثين الكبار : (مَعْمَر بن راشد البصري) ، الذي كان يَرحَلُ من بلد

=يوسف القواس : سمعت أبا بكر بن زياد يقول . . . » . انتهى . وجاء في ترجمته في « طبقات الشافعية الكبرى » ٣ : ٣١٢ « وكان يقال : إن أبا بكر النيسابوري أقام أربعين سنة لا ينام الليل ، . . . » .

إلى بلد لِيَنشُرَ الحديث النبوي ، ويَجمَع إليه ما لم يكن عنده منه ، فلما حَلَّ في اليَمَن رَغِبَ أهلُ تلك الديار أن يَبقى عندهم ، لِيَكسِبوا من علمه وفضله ، فاختاروا له قَيْداً منعوه به من مغادرتهم ، وكان ذلك القيدُ هو أن زوَّجوه امرأةً منهم ، فكانت قَيْداً له حَبَسه عن الرحلة والعودة إلى الوطن الأول ، فاستمر لديهم الى آخر الحياة .

قال العِجْلي في ترجمته : « مَعْمَرُ بن راشد ، يكنى أبا عُروة ، بصريٌّ سكَنَ صنعاءَ اليَمَن ، وتزوَّج بها ، ثقةٌ رجل صالح ، وكان من عقلاء الرجال ، رَوَى عنه ابنُ المبارك ، ورَحَل إليه سفيانُ الثوري ، وسَمِعَ منه بصنعاء .

ولمَّا دخل صنعاء كرِهوا أن يَخرج من بين أظهرهم ، فقال لهم رجل : قَيِّدُوه ، فزَوِّجُوه » . فأقام عندهم حتى مات سنة **١٥٣** رحمه الله تعالى .

ومن لطيفِ ما أُشِيرَ به إلى أن الزواج قَيْدٌ ومسئولياتٌ ثقيلة : قولُ بعض الظرفاء :

إنَّ ذِئباً أَمْسَكُوه وتمارَوْا في عِقابِهْ
قال شيخٌ : زَوِّجُوه ودَعُوهُ في عذابِهْ

فالزواجُ وما يتصل به وما يَنشأ عنه ويترتَّبُ عليه : قَيْدٌ لا ريب فيه ، وله مسئوليات تأخُذُ جوانبَ كبيرةً من حياة الرجل مادِّيّاً ومعنوياً ، وتقتَطِعُ من فراغه للعلم كثيراً ، بل قد تَقطَعُه عن العلم أو الازديادِ فيه قطعاً ! كما شُوهِدَ ذلك في كثير من العلماء الأذكياء ، فلذا آثرَ بعضُهم العُزوبَةَ عليه .

ولقد تعرَّض الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى ، إلى بحث (مسألة اختيار العُزوربة على الزواج) في كتابه « إحياء علوم الدين »

٢ : ٢١ ـ أوائلَ كتاب النكاح ، وجلَّاهـا خير تجليـة ، فأورد الآيـاتِ والأحاديثَ والآثارَ المرغِّبَة في الزواج ، ثم شَرَح فوائدَ الزواج ، ثم شَرَحَ آفاتِه ، وذَكَر أنها ثلاثة : الآفَةُ الأولى : العجزُ عن تحصيل المالِ الحلال للمعاش . . . ، والآفَةُ الثانيةُ : القصورُ عن القيام بحقوقِ الزوجة والصبرِ على أخلاقها واحتمالِ أذاها . . ، ثم قال :

« الآفَةُ الثالثَةُ : أن يكون الأهلُ والولد شاغلاً له عن الله تعالى ، وجاذباً له إلى طلب الدنيا ، وحسنِ تدبير المعيشة للأولاد ، بكثرة جمع المال ، وادّخارِه لهم ، وطلبِ التفاخر والتكاثِر بهم .

وكلُّ ما شَغَل عن الله تعالى من أهل ومال وولد ، فهو شُؤم على صاحبه . ولستُ أعني بهذا أن يَدْعُوَهُ إلى محظور ، فانَّ ذلك مما اندرج تحت الآفةِ الأولى والثانية ، بل أن يَدْعُوَه إلى التنعُّم بالمباح ، بل إلى الإغراقِ في مُلاعبةِ النساء ومؤانستِهن ، والإمعانِ في التمتع بهن .

ويَثُورُ من النكاح أنواعٌ من الشواغل من هذا الجنس ، تستغرِقُ القلبَ ، فينقضي الليلُ والنهار ، ولا يتفرَّغُ المرءُ فيهما للتفكر في الآخِرةِ والاستعدادِ لها ، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى : من تَعَوَّدَ أفخاذَ النساء لم يجيء منه شيء . وقال أبو سُلَيمان الداراني رحمه الله تعالى : من تزوَّجَ فقد ركَنَ إلى الدنيا. أي يدعوه ذلك إلى الركونِ إلى الدنيا .

فهذه مجامع الآفات والفوائد ، فالحكمُ على شخصٍ واحد بأنَّ الأفضل له النكاحُ أو العُزُوبة مطلقاً : قُصورٌ عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور ، بل تُتَّخَذُ هذه الفوائد والآفاتُ مُعْتَبَراً ـ أي مِقياساً ـ ومِحَكّاً ، ويَعرِضُ المرءُ عليه نفسَه :

فإن انتفَتْ في حقِّه الآفاتُ ، واجتمَعَتْ الفوائد ، بأن كان له مال حلال ، وخُلُقٌ حسن ، وجِدٌّ في الدِّين تامٌ لا يَشْغلُه النكاحُ عن الله تعالى ،

وهو مع ذلك شابٌ محتاجٌ إلى تسكين الشهوة ، ومنفردٌ يَحتاج إلى تدبير المنزل ، والتحصُّن بالعشيرة ، فلا يُمارَى أنَّ النكاح أفضَلُ له ، مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد .

فان انتفَتْ الفوائد ، واجتمعَتْ الآفاتُ ، فالعُزوبةُ أفضلُ له . وإن تقابل الأمرانِ وهو الغالب ، فينبغي أن يُوزَن بالميزانِ القِسطِ حَظُّ تلك الفائدة في الزيادةِ من دِينِه ، وحَظُّ تلك الآفةِ في النقصانِ منه ، فاذا غَلَب على الظنِّ رُجحانُ أحدِهما حُكِمَ به . وأظهرُ الفوائد : الولَدُ ، وتسكينُ الشهوة . وأظهرُ الآفاتِ : الحاجةُ إلى كسبِ الحرام ، والاشتغالُ عن الله تعالى » .

ثم ضَرَب الأمثلة للموازنة بين تفضيل إحدى الحالين على الأخرى. . . ، ثم قال : « فهكذا ينبغي أن توزن هذه الآفات بالفوائد ، ويُحكَم بحسبها . ومن أحاط بهذا لم يُشكِل عليه شيء مما نقلنا عن السلف ، من ترغيبٍ في النكاح مرةً ، ورغبةٍ عنه أخرى ، إذْ ذلك بحسَبِ الأحوالِ صحيح . . . » . انتهى

وفي هذا الذي شَرَحه وبيَّنَه الإمامُ أبو حامد الغزالي كفايةٌ ومَقْنَعٌ لتوجيه تعزُّبِ هؤلاء العُزَّاب، وأزيدُه بحثاً وإيضاحاً بما قاله الإمام الأصولي الفقيه أبو إسحاق الشاطبي في كتابه « الاعتصام » ١ :٣٢٨ ، في الفصل العاشر من الباب الخامس ، قال رحمه الله تعالى :

«ويتعلَّقُ بقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمَنُوا لا تُحَرِّموا طَيِّباتِ ما أَحلَّ اللَّهُ لكم﴾ مسائل :

المسألةُ الأولى : أنَّ تحريم الحلال وما أشبه ذلك يُتصوَّرُ في أوجهٍ :

الأول: التحريمُ الحقيقي ، وهو الواقعُ من الكفار ، كالبَحِيرَةِ والسَّائبة . . .

الثاني : أن يكون مجرَّدُ تَرْكٍ لا لِغَرَض ، بل لأنَّ النفس تكرهه بطبعِها ، أو لا تكرهه حتى تستعمِلَه ، أو لا تَجِدُ ثمنَه ، أو تشتغلُ بما هو آكد ، وما أشبَهَ ذلك ، ومنه تَرْكُ النبي ﷺ لأكلِ الضَّبّ ، لقوله فيه : « إنه لم يكن بأرضِ قومي ، فأجِدُني أعافُه » . ولا يُسمَّى مثلُ هذا تحريماً ، لأنَّ التحريم يستلزم القصدَ إليه ، وهذا ليس كذلك » .

ثم قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى **١ : ٣٣١** « فانَّ من يَلحقُه الـضررُ وقـتَ ما يتناول شيئاً ، يمكنه أن يُمسِك عنه من غير تحريم ، والتاركُ لأمرٍ لا يَلزَمُ أن يكون محرِّماً له ، فكم من رجلٍ تَرَك الطعامَ الفُلانيّ ، أو النكاحَ ، لأنه في ذلك الوقت لا يشتهيه ، أو لغيرِ ذلك من الأعذار ، حتى إذا زال عُذرُه تناوَلَ منه ، وقد تَرَك النبيُّ ﷺ أكلَ الضَّبّ ، ولم يكن تركُه مُوجِباً لتحريمه » .

ثم قال في الفصل الحادي عشر من الباب الخامس **١ : ٣٣٧** « وأمَّا ما ذكره الغزاليُّ وغيرُه من تفضيل العُزلة على المخالطة ، وترجيحِ العُزوبة على اتخاذِ أهلٍ عند اعتِوَارِ العوارض ، ففيه تفصيل .

وبيانُه أنَّ المطلوباتِ الشرعية ، لا تخلو أن يكون المكلَّفُ قادراً على الامتثال فيها ، مع سلامته عند العمل لها من وقوعِهِ في مَنْهيٍّ عنه ، أوْ لا .

فان كان قادراً في مَجارِي العادات ، بحيث لا يُعارضه مكروه أو مُحرَّم ، فلا إشكالَ في كون الطلب متوجِّهاً عليه بقَدْرِ استطاعته ، على حَدّ ما كان السلف الصالح عليه ، قبلَ وقوعِ الفِتَن .

وإن لم يَقدِر على ذلك إلا بوقوعه في مكروه أو مُحرَّم ، ففي بقاء الطلب هنا تفصيلٌ بحسب ما يَظهر من كلام الغزالي :

إذ قد يكون المطلوب مندوباً ، لكنه لا يمكنه أن يَعمل به إلا بوقوعه في ممنوع ، فالمندوبُ ساقطٌ عنه بلا إشكال ، كالمندوبِ للصدقةِ على المحتاج ، ولا مالَ بيده إلا مالُ الغير ، فلا يجوز له العملُ بالنَّدْب ، لأنه يقع بسببه في التصرُّف في مال الغير بغير إذنه ، وهو لا يجوز ، فهو كالفاقد لما يَتصدَّقُ به ، وكالقائم على مريضِه المُشْرِف على الموت ، أو دَفْنِ ميتٍ يُخافُ تغييرُه بتركِه ، ثم يقومُ يصلي نافلةً ، والمتزوِّجِ الذي لا يَجِدُ إلا مالاً حراماً ، وأشباهِ ذلك .

وقد يكون المطلوب واجباً ، إلا أنَّ وقوعه فيه يُدخُله في مكروه ، وهذا غيرُ مُعْتَدٍّ به ، لأن القيام بالواجب آكد . أو يُدخلُه في ممنوع ، فهذا الذي يتعارضُ على الحقيقة ، إلا أنَّ الواجباتِ ليست على وِزانٍ واحد ، كما أنَّ المحرمات كذلك ، فلا بد من الموازنة .

الدكن

فإنْ ترجَّحَ جانبُ الواجب صار المحرَّم في حكم العَفْو ، أو في حكم التلافي إن كان مما تُتَلافَى مفسدَتُه ، وإن ترجَّحَ جانبُ المحرَّم ، سَقَط حكمُ الواجب ، أو طُلِبَ بالتلافي .

وإن تعادَلا في نظر المجتهد ، فهو مجالُ نظرِ المجتهدين ، والأَولَى عند جماعة رعايةُ جانب المحرَّم ، لأنَّ دَرْءَ المفاسد آكَدُ من جلبِ المصالح .

فإذا كانت العُزلة مؤدِّيةً إلى السلامة ، فهي الأَولَى في أزمنَةِ الفِتَن ، والفِتَنُ لا تَختصُّ بفِتَنِ الحروب فقط ، فهي جاريةٌ في الجاهِ والمالِ وغيرِهما من مكتسبات الدنيا ، وضابطُها : ما صَدَّ عن طاعةِ الله تعالى . ومثِلُ هذا يَجري بين المندوبِ والمكروه ، وبين المكروهَيْن .

وإن كانت العُزلةُ مؤدِّيةً إلى تَرْكِ الجُمُعات والجَمَاعات ، و ـ إلـى ـ

التعاونِ على الطاعات ، وأشباهِ ذلك ، فانها أيضاً سلامة من جهة أخرى ، ويقع التوازنُ بين المأموراتِ والمنهيات ، وكذلك النكاحُ ، إذا أدَّى إلى العملِ بالمعاصي ، ولم يكن في تركِه معصية ، كان تركُه أولى » انتهى كلامُ الشاطبي .

وقال أستاذنا الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله تعالى في كتابه « السيد البدوي » ، وقد ترجم في هذا الكتاب ودَرَس حياة الشيخ أبي العباس أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني البدوي المصري ، المتصوِّف ، صاحبِ الشهرة المستطيرة في الديار المصرية ، المولود سنة ٥٩٦ ، والمتوفَّى سنة ٦٧٥ رحمه الله تعالى ، الذي قال صاحب « شذرات الذهب » في ترجمته ٥ :٣٤٥ « ولم يَتزوَّج قَطُّ » .

قال شيخنا في كتابه المذكور ص ٢٧ ، وهو يعتذر عن عُزوبة الشيخ البدوي ، وعن عزوفِهِ عن الزَّواج بمن تقدَّمَتْ إليه لتكونَ زوجةً له ، وهي فاطمةُ بنتُ بَرِّي ، ما يلي :

« كانت خِطَّةُ السيد التي وضعها لنفسه ، هي أن يَخْلُصَ للدعوة ، إنه لا يُحرِّمُ الزواج ، ولا يُنفِّر منه ، إنه لا يُحرِّمُ حلالاً ، كما لا يُحِلُّ حراماً ، وهو لا يدعو إلى الرهبانِيَّةِ التي تتمثَّلُ أوضحَ ما تتمثَّلُ في الامتناع عن الزواج ، كلَّا ، فالزواجُ شريعةُ الإسلام ، وسُنَّةُ رسولِ الله ﷺ .

ولكنه وَجَد أن العالم الإسلامي في حاجةٍ إلى تفرُّغ تام ، وأنَّ الدعوة تَستغرِقُ عمرَه ، وأعماراً مع عمره ، فحَزَم أمرَه على التفرغ الكامل للدعوة ، إنه لم يَجِد القُوَّةَ التي كانت عند رسول الله ﷺ ، أو عند خيارِ أصحابه من رجالِ الدعوة ، والتي مكَّنتهم من الزواج والدعوةِ معاً .

وحُبُّ الدعوةِ وإرادةُ النهوض بالعالم الإسلامي ، صَرَف الكثيرَ من

رجال الإصلاح عن الزواج طُولَ حياتهم ، أو جزءاً كبيراً من حياتهم ، والأمثلةُ كثيرةٌ على مَجْرَى التاريخ ، ومن أجل ذلك لم يَجِدْ عَرْضُها فيما يتعلَّقُ بالزواج في نفس الشيخ البدوي قبولاً . . . » . انتهى .

وبعدَ الفراغ من هذا المبحثِ الواسع الجامع ، في مسوِّغات العُزوبةِ التي وقعَتْ لكثير من العلماء الكبار المشهورين ، أسوقُ تراجمَ طائفةٍ من هؤلاء الأئمةِ الأعلام ، المقتدَى بهم في علوم الدين ، من عصورٍ مختلِفة ، ومذاهبَ متعدِّدة ، من مفسِّرين ، ومحدِّثين ، وفقهاءَ ، وأصوليين ، ولغويين ، ونَحْـويين ، وأدباءَ ، ومؤرِّخين ، ومتـزهِّدين ، لتكون كالنماذج لكثيرٍ سواهم ، من الذين صَبَرُوا على شدائدِ العُزوبةِ ومَشاقِّها ، في سبيل تحصيل العلم والازديادِ منه ، فآثَرُوا نَفْعَ غيرِهم على لَذاذَةِ أنفسِهم ، رضي الله عنهم ، وأحسَنَ إليهم بما أحسنـوا للعلم وأهلِه .

وأُوردُ أخبارَهم مُراعِياً فيها الترتيبَ الزمني ، من حيث وجودُهم ووفَيَاتُهم ، ومقتصِراً في بعضها على ما تُذكَرُ فيه عُزوبَتُهم وبعضُ أخبارهم ، ومُطِيلاً في بعضها إذا رأيتُ في الترجمة ما يَتصِّلُ بجوانب هذا الكتاب ، ويَزيدُ في معناه ومقصودِه ، ولأكشف أنهم إذْ انصرفوا عن الزواج إلى العُزوبةِ ، وجَّهوا طاقاتهم لخدمة الإسلام والعلم والدين ، وآثَرُوا بها خِدمَةَ الشريعة والمسلمين . فقد آثرونا على مُتَع أنفسِهم ، وعَطَشِ أجسامِهم ، وراحةِ أبدانهم ، رضوانُ الله عليهم .

وقد توخَّيتُ في اختيار من أُترجمُ لهم من (العلماء العُزَّاب) في هذا الكتاب ، أن تكون سِيرتُهم مُوجِّهةً مُعَلِّمة حافزة ، وأن تكون حياتُهم العِلميةُ والسُّلوكيةُ جيَّاشةً نبَّاضَةً بأنواع الفضائل والمآثِر، تَبعَثُ في نفس قارئها الأئتساءَ والاقتداءَ بهم (خلا العُزَوبة) ، وتَطبعُ في شخصيتِه الخيرَ

وحُبَّ العلم والالتهابَ به ، وتَشُدُّه إلى الصلاح والتقوى .

وليشهَدَ (طلابُ العلم اليوم !) من خلال تراجم أولئك الأئمة ، غلاءَ العلم ورفْعَتَه ومَعزَّتَه عند هؤلاءِ العلماءِ الفضلاء الصلحاءِ النبلاء ، الذين اختاوروا حِرمانَ أنفسِهم من أُنسِ الزواج ومُتْعَتِه ، ومنفعتِه ورعايتِه طُولَ حياتهم ، ابتغاءَ أن يزدادوا من العلم وتحصيلِه ، ومن خِدمتِه وتبليغِه لمن بعدَهم ، فآثرونا على حصول الزوجةِ والأولادِ ، والنَّسْلِ والذُّرِّيَّة لهم ،فجزاهم الله عن العلم والدين والإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء، وأكرمهم في جواره بالحُوْر العِيْن ، مع النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ أولئك رفيقا .

وقبل الدخول في سِياقة تراجم هؤلاء العُزَّاب ، أستَحسنُ أن أذكر بعض الكلمات اللغوية التي تتعلق بالوصف بالعُزوبة ، استكمالاً للمقام ، فأقول :

يقال سماعاً من العرب ، للرجل: عَزَبٌ وأَعْزَبُ . وللمرأة : عَزَبٌ وعَزَبَةٌ . ويقال قياساً ولم يُسمَع ، للرجل : عازبٌ ، وللمرأة : عازِبةٌ وعَزْباءُ . وأما ما جرى على الألسنة اليوم ، من قولهم للمرأة : (عَزْبَة) بسكون الزاي ، وللجمع من الرجال : (عُزْبان) ، فعاميٌّ لا سند له من اللغة[1] .

---

(١) مادَّةُ (عَزَبَ) تَدُورُ على ثلاثةِ مَعانٍ : الانفرادُ ، والبُعْد ، والتَّنَحِّي . والمعنى الملائمُ للمقام هنا هو : الانفرادُ ، فقد قالوا : كلُّ منفرِدٍ عَزَبٌ . وعَزَبَ الرجلُ يَعزُبُ ـ من باب نَصَر ـ عُزْبةً وعُزُوبةً : إذا لم يكن له زوجة ، فهو عازب ـ على قياس الباب ـ وعَزَبٌ بفتح الزاي على السَّمَاع ، ويُجمَع على عُزَّاب بضم العين وتشديد الزاي ، باعتبار بنائه الأصليْ القياسي لاسم الفاعل (عازب) من فِعْلِ (عَزَبَ) ، ويُجمَع أيضا على أَعْزَاب ، باعتبار بنائه الحالي المسموع : (عَزَبٌ) .

وامرأةٌ عَزَبٌ وعَزَبةٌ بفتح الزاي فيهما : لا زوجَ لها ، ونِسوةٌ عَزَباتٌ ، ونساءٌ عُزَّاب=

=وأَعْزَاب : لا أزواجَ لهنّ . وإنه لَعَزَبٌ لَزَبٌ ، وإنها لَعَزَبةٌ لَزَبةٌ : إتْباع .

وتَعزَّبَ الرجلُ : تَرَكَ النكاحَ ، وتَعزَّبتْ المرأةُ : تركتْه أيضاً . وتعزَّب الرجلُ زماناً ثم تَزوَّج ، وكذلك المرأةُ ، أي طال بقاؤهما في العُزُوبةِ ثم تزوَّجا .

والعَزِيبُ والمِعْزابَةُ : الرجلُ أو المرأةُ إذا كان عَزَباً . ويقال ذلك أيضاً لمن طالت عُزوبتُه منهما حتى لم يَبق له في الأهل من حاجة .

والمِعْزَبَةُ ـ كالمِغْرَفةِ ـ والعازِبةُ ، والمُعَزِّبةُ : امرأةُ الرجل يأوي إليها ، فتقومُ بإصلاح طعامه وحِفظِ أداتِه . يقال : عَزَبَتْهُ امرأتُه تَعزُبُه إذا قامَتْ بأمورِه . ويقال : ما لفلانٍ مُعَزِّبَةٌ ، وليس له زوجةٌ تُعَزِّبُه أي تُذهِبُ عُزوبتَه وانفرادَه : بالنكاح والزَّواج .

وعَزَّبه : أزال عُزُوبتَه ، وأعْزَبَه : جعلَه عَزَباً ، مثل مَرَّضَه في السَّلْب ، وأمرَضَه في الإثبات .

قال أبو حاتم السِّجِسْتاني : ولا يقال : رجلٌ أعْزَب . قال الأزهري : وأجازه غيرُه . وقياسُ قول الأزهري أن يقال : امرأةٌ عَزْبَاء ، مثل أحمَرَ وحَمْراء . نقَلَه الفَيُّومي في « المصباح المنير » في (عَزَب) ، ثم قال في الفصل الرابع من فصول الخاتمة آخِرَ الكتاب : « وعَزَبَ الرجلُ فهو أعْزَب ، وحيث كان الفاعلُ على أفعَلَ للمذكر ، فهو للمؤنَّثِ على فَعْلاء ، نحو أحمَرَ وحَمْراء » . انتهى . وهذا يفيد جوازَ (عزباء) عند الفَيُّومي .

وجاء ابنُ الأثير في « النهاية » بكلام مضطرب غيرِ محرَّر ، فنفَى (أعْزَب) ، وأثبَتَ (عَزْباء) ، فقال : « ورجلٌ عَزَبٌ ، وامرأةٌ عَزْباء ، ولا يقالُ فيه : أعْزَب » . انتهى .

قلت أما نفيُه (أعْزَب) فقد تَبِعَ فيه أبا حاتم ، ولا ضَيْرَ عليه في ذلك ، لولا ثُبُوتُ (أعْزَب) في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في « صحيحه » في موضعين :

<u>الموضعُ الأوَّلُ</u> منهما في كتاب الصلاة في (باب نَوْم الرجال في المسجد) ١ : ٥٣٥ ، رَوَى فيه البخاريُّ بسنده الصحيح إلى نافع مولى عبد الله بن عُمَر قال : « أخبَرني عبدُ الله ـ أي ابنُ عُمَر ـ أنه كان يَنامُ وهو شابٌّ أعْزَبُ لا أهلَ له ، في مسجدِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم . . . » .

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » هنا ١ : ٥٣٥ « قوله : أعْزَبُ . بالمهملة والزاي ، أي غيرُ متزوج . والمشهور فيه : عَزِبٌ بفتح العين وكسرِ الزاي . والأول ـ أي أعْزَب ـ لغة قليلة ، مع أن القَزَّاز أنكرها » . انتهى .

قال عبد الفتاح : وفي هذا الكلام غَلَطٌ وسَبْقُ قلم ، والصوابُ في عبارته هكذا : « والمشهوُر فيه عَزَبٌ بفتح العينِ والزايِ . . . » . =

....

= وهذا التصويب متعيِّن ليوافِقَ قولُ الحافظِ ابن حجر هنا قولَه في كتاب التعبير من « فتح الباري » أيضاً ، في (باب الأَخْذِ على اليمين في النَّوْم) ١٢ : ٤١٨ ، تعليقاً على قول ابن عمر فيه : « وكنتُ غُلاماً عَزَباً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم » . فقد قال الحافظ ابنُ حجرٍ نفسُه هنا : « العَزَبُ بفتح المهملة والزاي ثم موحدة : من لا زوجةَ له ، ويقال له : الأَعْزَب بقلةٍ في الاستعمال » .

وليوافِقَ أيضاً قولَه في « هَدْي الساري مقدمة فتح الباري » ١ : ١١٧ « قولُه : عزب بفتح الزاي ، أي لا زَوْجَ له ، ومنه : اشتَدَّتْ علينا العُزْبَة ، ورجلٌ عزبٌ وأعْزبُ بمعنى ، ومنهم مِن أنكر : أعْزَب » . انتهى .

وقد اغتَرَّ بخطئِهِ المذكور في قوله : (والمشهُور فيه عَزِبٌ بفتح العين وكسر الزاي) بعضُ شراح الحديث ، كصاحب « عون المعبود في شرح سنن أبي داود » ، فضبَطَ قولَ ابن عمر في كتاب الطهارة في (باب في طَهُور الأرض إذا يَبِسَتْ) ١ : ١٤٦ « وكنتُ فتى شاباً عَزِباً » . بفتح العين وكسر الزاي ! ثم قلَّده الشيخُ محمد محي الدين عبد الحميد ! في « سنن أبي داود » في الباب نفسِه ١ : ١٥٦ ، فشَكَل قولَ ابن عمر « وكنتُ فتى شاباً عَزَباً » بفتح الزاي وكسرِها ! والكسرُ غلطٌ لا ريب فيه ، فاعرِفْه واجتَنِبْه .

والموضعُ الثاني من الموضعين في « صحيح البخاري » ، في كتاب فضائل الصحابة في (باب مناقب عبد الله بن عُمَر) ٧ : ٨٩ ، وفيه قولُ ابنِ عمر : « . . . وكنتُ غُلاماً أعْزَبَ ، وكنتُ أنام في المسجد . . . » .

وهناك حديثٌ ثالث ذكره الزَّبيدي في « تاج العروس » عند تعليقه على قول أبي حاتم : (ولا تَقُلْ : أعْزَب) . قال الزَّبيدي : « لكونه غيرَ واردٍ ولا مسموع ، أو ـ هو ـ قليلٌ أجازَه غيرُه ، واستَدَلَّ بحديثِ : ما في الجَنَّة أعْزَب » . انتهى .

قلت : هذا الحديث جاء في « صحيح مسلم » ، فرَوَى مسلم في « صحيحه » ١٧ : ١٧٠ ، في أوائل (كتاب الجنةِ وصفةِ نعيمِها وأهلِها) ، بسنده الصحيح المتصل إلى محمد بن سيرين : « قال : إمَّا تَفاخَرُوا ، وإمَّا تذاكَرُوا ، الرجالُ في الجنَّةِ أكثَرُ أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : أو لم يَقُل أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : إنَّ أوَّل زُمْرةٍ تَدخُلُ الجنَّةَ على صُورَةِ القمر ليلةَ البَدْر ، والتي تليها على أَضْوءِ كوكبٍ دُرِّيٍّ في السماء ، لكل امرىءٍ منهم زَوْجتانِ اثنتانِ ، يُرَى مُخُّ سُوقِهما من وراءِ اللَّحْم ، وما في الجنَّةِ أعْزَبُ » .

قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » ١٧ : ١٧١ « قولُه : (وما في الجَنَّةِ أعْزَبُ) ، هكذا في جميع نُسَخ بلادنا : (أعْزَبُ) بالألف ، وهي لغة ، والمشهورُ في اللغة (عَزَبٌ) بغير ألف . ونَقَل القاضي ـ عِيَاض ـ أنَّ جميعَ رُوَاتِهم رَوَوْه : (وما في الجنَّةِ عَزَبٌ) بغير ألف ، إلا العذريَّ فرواه بالألف ، قال القاضي : وليس بشيء . =

= والعَزَبُ من لا زَوْجَةَ له ، والعُزُوبُ البُعْدُ ، وسُمِّيَ عَزَباً لبُعْدِه عن النساء » . انتهى .

ورَوَى حديثَ أبي هريرة هذا : (. . . وما في الجنة أَعْزَبُ) الإمامُ أحمد في « مسنده » ٢ : ٢٣٠ و٢٤٧ ، باللفظ الذي رواه به مسلم ، وعلَّق عليه شيخنا العلامة أحمد شاكر رحمه الله تعالى في طبعته من « المسند » ١٢ : ١٣٦ ، بقوله : « قولُه : (أَعْزَبُ) هو الذي لا زوجة له ، وأنكر بعضُ أهل اللغة هذا الحرف بزيادة الهمزة ، والأكثر (عَزَبٌ) بفتحتين ، وقد بيَّنا في الاستدراك ٩ : ٢٩٩ صِحَّتَه بزيادة الهمزة لثبوتها في الأحاديث الصِّحاح » . انتهى .

ورَوَى الإمامُ أحمدُ أيضاً في « مسنده » ٢ : ٧١ ، حديثَ ابن عمر الذي رواه البخاري : (. . . كنتُ أَعْزَبَ شاباً أَبِيتُ في المسجد . . .) ، وعلَّق عليه شيخنا أحمد شاكر رحمه الله تعالى في طبعته من « المسند » ٩ : ٢٩٩ ، بقوله :

« قولُه : (أَعْزَب) ، الأَعْزَبُ هو العَزَبُ ، الذي لا زوجَةَ له ، وأنكرها ابنُ الأثير في « النهاية » ، فقال : « ولا يقال فيه : أَعْزَب » . وقال الحافظ في « الفتح » ١ : ٤٤٦ إنها « لغةٌ قليلة ، مع أن القَزَّاز أنكرها » . وفي « لسان العرب » : « ولا يقال : رجلٌ أَعْزَب ، وأجازه بعضُهم » .

أقول ـ القائل أحمد شاكر ـ : وهي صحيحة بثبوتِها في الحديث الصحيح ، هنا وفي البخاري » . انتهى .

ومن أثبَتَ (عَزْباء) لَزِمَه إثباتُ (أَعْزَب) ، لأنهما من اشتقاقٍ واحد ، ويَزيدُ (أَعْزَبُ) ثبوتاً بكونِهِ وارداً في الحديث الصحيح كما تقدم .

ووَجْهُ من مَنَع (أَعْزَب) ـ لولا وُرُودُه وثبوتُه في الحديث ـ أنَّ فِعْلَ (عَزَب) لم يأتِ على وَزْنِ (فَعِلَ) الذي يكون للألوانِ والعُيُوب ونحوِهما ، حتى يأتيَ منه اسمُ الفاعِل : أَفْعَلَ وفَعْلاءَ ، مثلَ أَحْمَرَ وحمراء .

وخُلاصةُ القولِ في هذا الصَّدَد : يقال سَماعاً للرجلِ : عَزَبٌ وأَعْـزَب . وللمرأةِ : عَزَبٌ وعَزَبَةٌ . ويقال للرجل ـ قياساً ولم يُسمَع ـ : عازِب ، وللمرأةِ : عازِبةٌ وعَزْباء . وأما قولُ الناس اليوم للمرأة : (عَزْبَة) بسكون الزاي ، وللجمع من الرجال : (عُزْبان) فعامِيٌّ لا سَنَد له . والله تعالى أعلم .

رجعتُ في كتابة هذه المادة اللغوية إلى الكتب التالية : الجمهرة لابن دريد ، التهذيب للأزهري ، الصحاح للجوهري ، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، الأساس والفائق للزمخشري ، النهاية لابن الأثير ، المصباح المنير للفيومي ، لسان العرب لابن منظور ، القاموس للفيروز آبادي ، مجمع بحار الأنوار للفَتَّني ، تاج العروس للزبيدي ، فتح الباري لابن حجر وهدي الساري له أيضاً .

١ - مِنَ العُلماءِ العُزّابِ

عبدُ الله بن أبي نَجِيح المكي (١) ، أحَدُ علماءِ تابعي التابعين ، قال الحافظ الذهبي في ترجمته في « تاريخ الإسلام » ٥ : ٢٦٩ ، و« سِيَر أعلام النبلاء » ٦ : ١٢٥ ، ما يلي :

« الإمام الثقة المفسِّر ، أبو يسار عبدُ الله بن أبي نَجِيح ، واسمُ أبيه يسار ، وكان أبوه مولى الأخنس بن شُرَيق الصحابي .

أحَدُ الثقات ، حدَّث عن مجاهد وطاووس وعطاء وغيرِهم ، ولم أجد له شيئاً عن أحد من الصحابة ، حدَّث عنه شعبة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وعبد الوارث وابن عُلَيَّة وآخرون .

وثَّقَه يحيـى بن معين وغيرُه ، إلا انه دَخَل في القَدَر . قال سفيان بن عيينة : كان ابنُ أبي نجيح مفتيَ أهل مكة بعد عَمْرو بن دينار ، وكان جميلاً فصيحاً ، حَسَن الوجه ، لم يتزوَّج قط .

---

(١) نَجِيح بفتح النون وكسر الجيم بوزن أمير ، كما في « مشتَبِه النسبة » للذهبي ص ٥١ ، و« القاموس » في (نجح) ، و« تاج العروس » للزبيدي ٢ : ٢٣٥ . وضبطه شَكْلاً محققُ « العِبَر » للذهبي ١ : ١٧٣ ، ومحققُ « طبقات المفسِّرين » للداودي ١ : ٢٥٢ ، نُجَيح : بضم النون وفتح الجيم . وهو خطأ منهما .

قال البخاري : حدثنا الفضل بن مقاتل ، حدثنا عمر بن إبراهيم بن كَيْسَان ، قال : مَكَثَ ابنُ أبي نَجِيح ثلاثين سنة لا يتكلَّمُ بكلمةٍ يؤذي بها جليسَه .

قال علي -بن المديني - : أما التفسيرُ فهو فيه ثقة يَعْلَمُهُ ، قد قَفَزَ القنطرة ، واحتجَّ به أربابُ الصِّحاح ، ولعله رَجَع عن البدعة - أي القولِ بالقَدَر - ؟ وقدر رأى القَدَرَ جماعةٌ من الثقاتِ وأخطأوا ، نسألُ الله العفو .

توفي سنة إحدى وثلاثين ومئة ، رحمه الله تعالى » .

٢ - مِنَ العُلَماءِ العُزّاب

الأديبُ النحوي (أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب البصري) ، جاء في ترجمته في « وفَيَات الأعيان » للقاضي ابن خَلِّكان ٢ : ٤١٦ ، ما يلي :

« مولدُه سنة ٩٠ ، ومات سنة ١٨٢ - وقيل في ولادته ووفاته غيرُ ذلك - أَخَذَ الأدب عن أبي عمرو بن العلاء ، وحمَّاد بن سلمة . وكان النحوُ أغلبَ عليه ، وسَمِعَ من العرب .

وروى عنه سيبويه كثيراً ، وسَمِعَ منه الكسائي والفراء ، وله قياسٌ في النحو ومذاهبُ ينفرد بها ، وكان من الطبقة الخامسة ، وكانت حَلْقَتُه بالبصرة ينتابها الأدباءُ وفصحاءُ العرب وأهلُ البادية .

قال مَعْمَر بن المُثَنَّى : اختلفتُ إلى يونس أربعين سنة[1] ، أملأُ كلَّ يوم

---

(١) هكذا كانت تلمذةُ الطلبة على الشيوخ عند المتقدمين : أربعين سنة ، وعشرين سنة ، وعَشْرَ سنين ، والطالبُ عالمٌ جِدُّ عالم ، ومجلسُ الدرس طولَ النهار أو أكثرَه أو رُبعَه ، لا خمسين دقيقة أو خمساً وأربعين دقيقة ! فغدا أولئك الطلبةُ أئمةً بملازمة الأئمة .

أما اليوم فالدراسةُ أشهرٌ محدودة ، ودقائقُ معدودة ، ومن الصُّحف والكُرَّاساتِ الصمَّاء ، يتلقون منها دون مناقشة أو فهم أو هضم ، والحضُور بين يدي العلماء مفقود ، والدعاوي عريضة ، والألقابُ أعْرَض ! والعلمُ يشتكي إلى الله تعالى من أكثر هؤلاء المنتسبين إليه المتاجرين به ! =

ألواحي من حفظه . وقال أبو زيد الأنصاري النحوي : جلستُ إلى يوْنس بن حبيب عَشْرَ سنين ، وجَلَس إليه قَبْلي خَلَفُ الأحمرُ عشرين سنة .

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : عاش يونس بن حبيب ٨٨ سنة ، لم يتزوَّج ولم يَتَسَرَّ ، ولم تكن له هِمَّةٌ إلا طلَبَ العلم ومحادثةَ الرجال . وله من الكتب: كتابُ معاني القرآن الكريم ، وكتابُ اللغات ، وكتابُ الأمثال ، وكتابُ النوادر الصغير ، وكتابُ النوادر الكبير ، ومعاني الشعر ، رحمه الله تعالى » .

= ومَعْمَر بن المُثَنَّى هذا ، الذي لازم شيخَه (يونسَ بن حبيب) أربعين سنة ، هو أبو عُبَيدة البصري النحوي ، المولود سنة ١١٠ ، والمتوفى سنة ٢٠٩ ، الإمامُ في العلم ، الذي قال فيه الجاحظ ـ وحسبُك به في الثناءِ على العلماء ـ : « لم يكن في الأرض خَارِجيٌّ ولا جَمَاعيٌّ أعلمَ بجميع العلوم منه » . وقد تَرَكَ من المؤلفات له نحوَ ٢٠٠ كتاب . هذا الفحلُ الإمام كانت تلمذتُه على شيخِه : أربعين سنة .

وجاء في « نزهة الألباء » لأبي البركات الأنباري ص ١٢٦ ، وفي « وفيات الأعيان » لابن خلكان ١ : ٢٠٨ ، في ترجمة الإمام أبي زيد الأنصاري (سعيد بن يونس) البصري اللغوي الأديب ، تلميذ (يونس بن حبيب) ، وشيخ (الأصمعي) ، المولود سنة ١١٩ ، والمتوفى سنة ٢١٥ عن ٩٦ سنة ما يلي : « قال أبو عثمان المازني : كنا عند أبي زيد ، فجاء الأصمعيُّ إلى حلقة أبي زيد ، فأكبَّ على رأسه فقبَّله وجَلَس بين يديه ، وقال : أنت رئيسُنا وسيدُنا ومُعلِّمُنا منذ عشرين سنة ، ولفظ ابن خلكان : منذ خمسين سنة » .

وجاء في كتاب « العِلَل ومعرفة الرجال » للإمام أحمد بن حنبل ١ : ٣٦٧ ، قولُ الإمام أحمد رضي الله عنه : « لَزِمْنا إسماعيلَ بنَ عُلَيَّة بعدَما مات هُشَيم ـ بن بَشِير ، وكان قد لَزِمه الإمامُ أحمدُ أربعَ سنين ـ عَشْرَ سنين كلَّ يوم ، لا نُخِلُّ إلا أن تكون الحاجةُ » .

٣ - وَمِنَ العُلَمَاءِ العُزَّاب

حسين بن علي الجُعْفي ، المولود سنة ١١٩ ، والمتوفى سنة ٢٠٣ ، عن ٨٤ سنة رحمه الله تعالى ، جاء في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ١ : ٣٤٩ ، و« تهذيب التهذيب » لابن حجر ٢ : ٣٥٨ ما يلي :

« شيخُ الإسلام[1] ، أبو علي الجُعْفي مولاهم ، الكوفي ، الحافظ ، المقرىء ، الزاهد ، القدوة .

قرأ على حمزة الزيات ، وسَمِعَ من أبي عَمْرو بن العلاء ، والأعمش ، وجعفر بن بُرْقان ، وسفيان ، وعِدَّة .

ورَوَى عنه أحمد ، وإسحاق ، ويحيى ، وابنُ الفُرات ، وعبد بن حُمَيد ، وعباس الدُّورِي ، ومحمد بن عاصم ، وخَلْقٌ .

وثَّقه يحيى بن مَعِين وغيرُه ، وقال محمد بن رافع : ذاك راهبُ أهل

---

(١) لفظ (شيخ الإسلام) لقَبٌ أُطلِقَ في عهد الخلافة العثمانية ، على من قام بوظيفة الإمامة في الدين ، وكان أكبرَ العلماء مقاماً لدى سلطان المسلمين ، فهو بهذا المعنى لقبٌ وَظيفي .

وأطلقه العلماء السابقون على كل من حاز درجةً كبيرةً عاليةً في العلم بالكتاب والسنة ، وفي الفضل والصلاح والقدوة ، وكان مرجعَ المسلمين في العلم وشؤون الدين . وهو بهذا المعنى واردٌ في كتب المحدِّثين والمؤرِّخين والرجالِ والتراجم ، فاعرِفه .

الكوفة . وقال ابن قتيبة : قيل لسفيان بن عيينة : قَدِمَ حسين ، فوَثَب وأَتَى فقبَّل يدَه ، وقال : قَدِمَ رجلٌ أفضلُ رجلٍ يكونُ قطّ . وقال سفيان بن عيينة : عجبتُ لمن مَرَّ بالكوفة ، فلم يُقبِّل بين عينَيْ حُسَين الجُعفي . وكان سفيان الثوري إذا رآه عانَقَه .

وقال يحيى بن يحيى النيسابوري : إنْ بَقِيَ من الأبدال أحدٌ فحُسينٌ الجُعْفي . وقال الحجاج بن حمزة : ما رأيتُ حُسيناً الجُعْفيَّ ضاحكاً ولا متبسِّماً ، ولا سمعتُ منه كلمةً رَكَنَ فيها إلى الدنيا . وقال أحمدُ العِجْلي : كان ثقةً ، لم أر أفضلَ منه ، وكان جميلاً لَبَّاساً .

وقال حُمَيد بن الربيع الخزَّاز : كتبنا عنه أكثرَ من عشرة آلاف حديث » . انتهى .

وجاء في « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ١٣ :٤٧٣ ، في ترجمة (وكيع الجراح) : « قال إبراهيم بن الشمَّاس : لو تمنَّيتُ كنتُ أتمنَّى عقلَ ابن المبارك ووَرَعه ، . . . ، وصَبْرَ حُسَينٍ الجُعفي ، صَبَر ولم يَتزوَّج ، ولم يَدخل في شيء من أمرِ الدنيا » .

٤ - وَمِنَ العُلَماء العُزّاب

الإمامُ الزاهد العابد ، المحدِّث الفقيه ، الجَبَلُ الثقةُ الرِّضا ، عديمُ النظير في عصره ، أبو نصر بِشْرُ بن الحارث بن عبد الرحمن المَرْوَزِي ثم البغدادي ، المشهور باسم (بِشْر الحافي) .

ولد في مَرْو سنة ١٥٠ ، ونَزَل بغداد وتوطَّنها ، وسَمِعَ بها الحديث ، وأخَذَ عن شيوخٍ كثيرين في بغداد وغيرها ، منهم : حَمَّاد بن زيد ، وعبدُ الله ابن المبارك ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ومالك بن أنس ،وأبو بكر بن عياش ، والفُضيل بن عِيَاض ، وغيرهم .

ووَرى عنه جماعةٌ من الأئمة الكبار ، منهم أحمد بن حنبل ، وإبراهيم الحربي ، وزهير بن حرب ، وسَرِيٌّ السَّقَطِي ، والعباس بن عبد العظيم ، ومحمد بن حاتم ، وآخرون .

وسَمِعَ الحديثَ وأسمَعَه ، وعَدَّل وجَرَّح ووَثَّق وضعَّف[١] ، ثم اعتَزَل الناس ، واشتغل بالعبادة ، ولم يُحدِّث ، وصار عَلَماً من الأعلام في الزهد

---

(١) جاء ذلك في مواضع من كتب الرجال والمحدثين ، ومنها ما في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ١ : ٢٥٦ ، في ترجمة (يزيد بن زريع البصري) : « . . . وقال بشر الحافي : كان يزيد متقناً حافظاً ، ما أعلم أني رأيتُ مثلَه ومثلَ صحةِ حديثِه » .

والعبادة والتقوى والورع ، وقد أثنى عليه غيرُ واحد من الأئمة ، في عبادتِه وزَهَادتِه ونُسُكِه وتقشُّفِه وورعِه ، وقيل له بأي شيء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكرُ العافيةَ فأجعَلُها إداماً . ومات رحمه الله تعالى سنة ٢٢٧ من الهجرة عن سَبْع وسبعين سنةً من العمر .

قال أحمد بن ماهان : سُئل أحمد بن حنبل عن مسألة في الورع ، فقال : أنا أستغفرُ الله ، لا يَحِلُّ لي أن أتكلَّم في الورع وأنا آكلُ من غَلَّة بغداد ! لو كان بِشْرُ بن الحارث ، صَلَح أن يجيبك عنه ، لأنه كان لا يأكل من غَلَّة بغداد ولا من طعام السَّوَاد . قال الحسن بن محمد بن أعين : سمعتُ أحمدَ بن حنبل يقول : لولا بِشْرٌ وما نرجو من استغفاره لنا ، لكنا في عُطلة !

وقال الحسن بن الليث الرازي : قيل لأحمد : يَجِيئُك بِشرُ بن الحارث ؟ قال : لا تُعنُّون الشيخَ ، نحن أحقُّ أن نذهبَ إليه . وقال أبو بكر المَرُّوذي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكَرَ بِشْرَ بن الحارث ، فقال : لقد كان فيه أُنْس ، وقال : ما كلَّمتُه قط . ـ قال عبد الفتاح : كان الإمام أحمد يكتفي بمجالستِه ومشاهدتِه ومُشَامَّته فحَسْب ـ .

وقال الإمام أحمد : إنما قَوِيَ بِشْر ـ أي على ما كان عليه من العبادة والزهد والورع والفضائل العالية ـ لأنه كان وَحْدَهُ ، ولم يكن له عيال ، ليس من كان مُعْيِلاً كمن كان وحدَه ، لو كان إليَّ ما باليتُ ما أكلتُ ، ولو تَرَكَ الناسُ التزوُّجَ من كان يَدفعُ العدو ؟ لَبكاءُ الصبيّ بين يدي أبيه مُتَسخِّطاً ، يَطلُبُ منه خُبزاً أفضلُ من كذا وكذا ، فأين أن يلحقَه المتعبِّدُ الأعزبُ؟ . (نقلتُ هذه المقاطع الثلاثة من كتاب « الآداب الشرعية » لابن مفلح الحنبلي ٢ : ٢٥ و٢٥٤ و٢٦٠ و٢٦٢) .

وقال الإمام أحمد يوم بَلَغه موتُه : مات رحمه الله ولم يكن له نظير في هذه الأمة ، إلا عامرَ بن عَبْد قيس ، ولو تزوَّج كان قد تَمَّ أمرُه ، وما تَرَكَ بعدَه

مِثْلَه . وقال محمد بن المثنَّى : قلتُ لأحمد بن حنبل : ما تقول في هذا الرجل ؟ فقال لي : أيُّ الرجال ؟ قلت : بِشْر ، فقال لي : ما مَثَلُه عندي إلا مَثَلُ رجل رَكَز رَمْحاً في الأرض ، ثم قعَدَ منه على السِّنَان ، فهل تَرَك لأحدٍ موضعاً يَقعُدُ فيه ؟ انتهى قول الإمام أحمد .

وعلى هذا يَصدُقُ فيه قولُ زُهَير بن أبي سُلْمَى :

سَعَى بعدَهم قومٌ لكي يُدركوهمُ فلم يَفعلوا ولم يُلاموا ولم يَألوا

قال عبد الفتاح : وأثنى عليه تلميذُه الإمامُ إبراهيمُ الحربي الذي كان يُشبَّه بأحمد بن حنبل ثناءً ما رأيتُ مثلَه قِيلَ في مَدْحِ عاقل ، قال إبراهيم الحربيُّ : ما أخرجَتْ بغدادُ أتمَّ عقلاً منه ، ولا أَحْفَظَ للسانه من بشْر ، ما عُرِفَ له غِيبةٌ لمسلم ، كأنَّ في كل شعرة منه عَقْلاً ، ولو قُسِمَ عقلُه على أهلِ بغداد لصاروا عُقَلاءَ ، وما نَقَصَ من عقله شيء ، وطِيءَ الناسُ عقِبَه خمسين سنة .

وقال الخطيب البغدادي : كان بِشرٌ ممن فاق أهلَ عصره في الورع والزهد ، وتفرَّد بوفور العقل ، وأنواعِ الفضل ، وحُسنِ الطريقة ، واستقامةِ المذهب ، وعُزوفِ النفس ، وإسقاطِ الفُضُول ، وكان كثيرَ الحديث ، إلا أنه لم يَنْصِب نفسَه للرواية ، وكلُّ ما سُمِعَ منه فانما هو على سبيل المذاكرة .

وقال الحافظ الدارقطني : بِشرُ بن الحارث : زاهدٌ ، جَبَل ، ليس يَروي إلا حديثاً صحيحاً ، وربما تكون البليَّةُ ممن يَروِي عنه .

وقال الخطيب البغدادي والحافظ ابن كثير : وحين مات بشر ، اجتمع في جنازته أهلُ بغداد عن بَكْرَةِ أبيهم ، فأُخرِجَ بعد صلاة الفجر ، فلم يَستقرَّ في قبره إلا بعد العَتَمَة ، وكان النهارُ نهاراً صائفاً فيه طُول . قال يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني : رأيتُ أبا نصر التمَّار وعليَّ بن المديني في جنازة بِشْر ،

يَصِيحان في الجنازة : هذا واللّهِ شَرَفُ الدنيا قبلَ شَرَف الآخرة . قال الذهبي : كانت له جنازة عظيمة ، أُخرِجَتْ من غَدْوَةٍ ، فلم يَحصُلْ في قبره إلى الليل من الزحام . انتهى[١] .

وإنما أطلتُ بعض الإطالة في ترجمة (بِشْرٍ الحافي) ، لأن المركوز في أذهان بعض الناس أنه (صوفي درويش من الدراويش) ، ومُغَفَّل من المغفَّلين الصالحين ، والواقعُ أنه كان من كبار عقلاء الأمة وعلمائِها وصُلحَائِها ، رحمه الله تعالى ورضي عنه . ومصادر ترجمته هذه « تاريخ بغداد » للخطيب ٧ : ٦٧ ـ ٨٠ ، و« وفيات الأعيان » لابن خلكان ١ : ٩٠ ، و« البداية والنهاية » لابن كثير ١٠ : ٢٩٧ ، و« تهذيب التهذيب » لابن حجر ١ : ٤٤٤ ، و« خلاصة الخزرجي » .

---

(١) ونظراً إلى هذا المشهد ، كان يقال في السلف ، من جانبِ المتشرِّعين للمبتدِعين : بيننا وبينكم يومُ الجنائز . يُشيرون بهذا إلى أنَّ يومَ موتِ العالم وتشييع جنازته ، ينكشفُ فيه من كان من أهلِ السنة والصلاح عمن كان من أهلِ البدعة والطَّلَاح ، وذلك بانحسار الناس عن تشييع العالم المبتدِع ، وانجفالِهم وإقبالِهم إلى تشييع العالم المتشرِّع المتَّبع .

٥ - وَمِنَ العُلَماء العُزّاب

هَنَّادُ بن السَّرِيّ ، جاء في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ٢ : ٥٠٧ : « الحافظُ ، القُدوةُ ، الزاهد ، شيخ الكوفة ، أبو السَّرِيّ التميمي الدارمي المحدِّث ، حدَّث عن أبي الأحوص سَلَّام ، وشَرِيك بن عبد الله ، وإسماعيل بن عياش ، وعَبْثَر ، وهُشَيم ، وخلقٍ . ورَوَى عنه الجماعةُ سوى البخاري ، -ورَوَى عنه البخاري في كتاب « خَلْق أفعال العِبَاد » - وأبو زُرعة ، وعبدانُ وأبو العباس السراج ، وخلقٌ .

قال أحمد بن سلمة النيسابوري : كان هَنَّاد كثيرَ البكاء ، فَرَغ يوماً من القراءة لنا ، فتوضَّأ وجاء إلى المسجد ، فصلَّى إلى الزوال وأنا معه في المسجد ، ثم رجع إلى منزله فتوضَّأ وجاء فصلَّى بنا الظهر ، ثم قام على رجليه يصلي إلى العصر ، ويرفع صوتَه بالقرآنِ ويبكي كثيراً ، ثم صلَّى بنا العصر وأخَذَ يقرأ في المصحف حتى صلَّيتُ المغرب .

قلتُ لبعض جيرانه : ما أصبرَه على العبادة ؟ فقالَ : هذه عبادتُه بالنهار منذ سبعين سنة ، فكيف لو رأيتَ عبادتَه بالليل ؟! وما تَزوَّج قطُّ ولا تَسَرَّى ، وكان يقال له : راهبُ الكوفة . ولد سنة ١٥٢ ، وتوفي سنة ٢٤٣ عن إحدى وتسعين سنة رحمه الله تعالى[١] . وله مصنف كبير في الزهد » .

---

(١) نعم : عاش إحدى وتسعين سنة من غير زواج ولا تسرِّي ، تعلُّقاً بالعلم والعبادة، فما أغلاهما على قلبه ؟ وما أقوى صبرَه ، وما أشدَّ جلَدَه ؟ رحمةُ الله تعالى عليه ورضوانُه العظيم .

٦ - ومن العلماء العزاب[٧]

الإمام المجتهِدُ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، الحُجَّةُ ، المفسِّر ، المحدِّث ، الفقيه ، الأصولي ، النظَّار ، المُقْرىء ، المؤرِّخ ، اللغوي ، النَّحْوي ، العَرُوضي ، الأديب ، الراويةُ، الشاعر ، المحققِّ المدقِّق ، جامعُ العلوم والمفاخر ، وذو التصانيف والمآثر ، المجتهـدُ المطلَق ، وأحَدُ أئمة الدنيا علماً وديناً وحفظاً وكثرةَ تآليفَ جياد ، وقد طبَّقتْ شُهرتَه الآفاقَ ، وصار اسمُه (العَلَمَ المفردَ) عند الإطلاق .

وأَقطِفُ هنا جُمَلاً من ترجمتِهِ الحافلة الوارفة ، في « معجم الأدباء » للعلامة ياقوت الحموي ١٨ : ٤٠ ـ ٩٦ ، وفي « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ٢ : ١٦٢ ـ ١٦٩ ، رحمهما الله تعالى .

وُلِدَ في بلدةِ آمُلَ من بلاد طَبَرِسْتان سنة ٢٢٤ ، وحَفِظ القرآن وعمره سبعُ سنين ، وكَتَب الحديثَ وعُمرُه تِسعُ سنين ،ورَحَل في طلب العلم يافعاً وعُمرُه اثنتا عشرة سنة ، في عام ٢٣٦ حين سَمَح له أبوه بالرحلة ، ودخل بغداد بعد وفاة أحمد بن حنبل سنة ٢٤١ فلم يلقه ، وطوَّف أقاليمَ الإسلام لتحصيل العلم ولقاءِ العلماء ، فجال بلادَ خُراسان والعراقَ والشامَ ومصر ، ثم استوطن بغداد ، وأقام بها إلـى حين وفاتِه رحمة الله عليه . وقد حاز مقامَ الإمامة في العلم وهو في مقتبَل شبابه ، ثم غدا إماماً فذّاً ، مشهوداً له ، مرجوعاً إليه ، في كل العصور وعلى مَرِّ الدهور .

قال الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب في « تاريخ بغداد » ٢ : ١٦٣ ، في

ترجمته : كان أحَدَ أئمة العلماء ، يُحكَمُ بقوله ، ويُرجَعُ إلى رأيه ، لمعرفتِه وفضلِه ، وكان قد جَمَع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحدٌ من أهل عصره ، وكان حافظاً لكتاب الله عز وجل ، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في أحكام القرآن ، عالماً بالسُّنَن وطُرُقها ، وصحيحِها وسقيمِها ، وناسخِها ومنسوخِها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدَهم من الخَالِفين ، في الأحكامِ ومسائلِ الحلال والحرام ، عارفاً بأيام الناس وأخبارِهم .

وله التفسيرُ المشهورُ الذي لم يُصنِّف أحدٌ مثلَه : « جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن » ، وله الكتاب المشهور في التاريخ « تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والأُمَم » ، و« تهذيبُ الآثار وتفصيلُ الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار » لم أر سواه في معناه ، إلا أنه لم يُتمَّه ! وله في أصول الفقه وفروعه كتبٌ كثيرة ، واختيارٌ من أقاويل الفقهاء . وتفرَّدَ بمسائل حُفِظَتْ عنه .

قال الإمام أبو حامد أحمد بن محمد الإسْفِرايني الفقيه[١]: لو سافر رجلٌ إلى الصِّين ، حتى يَحْصُلَ له « تفسيرُ ابن جرير » ، لم يكن ذلك كثيراً . وقال الإمام أبو بكر بن خُزَيمة بعد أن وَقَف عليه : نظرتُ فيه من أوَّلِه إلى آخره ، وما أعلمُ على أديم الأرض أعلمَ من ابن جرير .

وحدَّث علي بن عُبَيد الله اللغوي السِّمْسِمي ، عن القاضي أبي عمر عبيد الله بن أحمد السِّمْسَار وأبي القاسم بن عقيل الورَّاق : أنَّ أبا جعفر الطبري قال لأصحابه : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قَدْرُه ؟ قال : ثلاثون ألفَ ورقة ، فقالوا : هذا مما تَفنَى الأعمارُ قبلَ تمامِه ! فاختَصَره في نحوِ ثلاثةِ آلافِ ورقة ، وأملاه في سبع سنين ، من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين .

---

(١) يقال : إسفرايني بكسر الهمزة وبفتحها ، وبفتح الفاء وبكسرها ، وإسفرايني بالياء الواحدة بعد الألف ، وبالهمزة بدلاً عنها ، وإسفراييني بياءين ، كما في « تاج العروس » ٩ : ٢٣٥ .

ثم قال لهم : أتنشطون لتاريخ العالَم من آدم إلى وقتِنا هذا ؟ قالوا : كم قَدْرُه ؟ فَذَكَر نحواً مما ذكره في التفسير ، فأجابوه بمثلِ ذلك ! فقال : إنّا لله ! ماتَتْ الهِمَم ! فاختَصَره في نحوٍ مما اختَصَر التفسير ، وفَرَغ من تصنيفه ومن عَرْضِه ـ أي قراءتِه ـ عليه يومَ الاربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثِ مئة ، وقَطَعَه على آخِرِ سنةِ اثنتين وثلاثِ مئة .

قال الخطيب : وسمعتُ السِّمْسِميَّ يحكي أن أبنَ جرير مكث أربعين سنة ، يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة . وحدَّث تلميذُه أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر الفَرْغَاني ، في كتابه المعروف بكتاب « الصِّلَة » ، وهو كتاب وَصَل به « تاريخ ابن جرير » : أنَّ قوماً من تلاميذ ابن جرير ، حَصَّلوا أيامَ حياتِه ، منذ بَلَغ الحُلم إلى أن تُوفي وهو ابنُ ستٍّ وثمانين سنة ، ثم قَسَموا عليها أوراقَ مصنَّفاته ، فصار منها على كل يوم أربعَ عشرةَ ورقة . وهذا شيء لا يتهيأ لمخلوقٍ إلا بحُسنِ عنايةِ الخالِق .

وحكى تلميذُه أبو بكر بن كامل ـ أحمد بن كاملٍ الشَّجَريُّ القاضي صاحبُ ابن جرير ـ قال: قال لي أبو جعفر: حَفِظتُ القرآنَ ولي سبعُ سنين، وصلَّيتُ بالناس وأنا ابنُ ثماني سنين ، وكتبتُ الحديث وأنا ابنُ تسع سنين . ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ ، وكان معي مِخلاةٌ مملوءةٌ حجارةً ، وأنا أرمي بين يديه فقال له المعبِّر : إنه إن كَبِرَ نَصَح في دينه وذَبَّ عن شريعته . فحَرَص أبي على معونتي على طلب العلم وأنا حينئذ صغير .

وكنا نكتبُ عند محمد بن حُمَيد الرازي ، فيَخرُجُ إلينا في الليل مرات ، ويَسأَلُ عما كتبناه ، ويقرؤه علينا . وكنا نمضي إلى أحمد بن حَمَّاد الدُّولَابي ، وكان في قرية من قرى الرَّيّ ، بينها وبين الريّ قِطعة ، ثم نَعْدُو كالمجانين ! حتى نَصِيرَ إلى ابن حُمَيد فنلحقَ مجلسَه . ويقال : إنه كتَبَ عن ابن حُمَيد فوقَ مئةِ ألفِ حديث .

وصَارَ في رحلته إلى الكوفة ، فكَتَبَ فيها عن عدد من المحدثين ، ومنهم أبو كُرَيب محمد بن العلاء الهَمْدَاني ، وكان هذا شَرِسَ الخُلُق ومن كبار أصحاب الحديث .

قال أبو جعفر : حضرتُ بابَ داره مع أصحاب الحديث ، فاطَّلع من باب خَوْخَة له - الخَوْخَةُ : البابُ الصغير على الباب الكبير - ، وأصحابُ الحديث يلتمسون الدخولَ ويَضِجُّون ، فقال : أيكم يَحفظُ ما كَتَب عني ؟ فالتفَتَ بعضُهم إلى بعض ، ثم نظروا إليَّ وقالوا : أنت تحفظُ ما كتبتَ عنه ؟ قلتُ : نعم ، فقالوا : هذا فسَلْهُ ، فقلتُ : حدَّثْتَنا في يومِ كذا بكذا ، وفي يومِ كذا بكذا .

قال : وأَخَذ أبو كُرَيب في مسألته ، إلى أن عَظُمَ في نفسه ، فقال له : ادخُلْ إليَّ ، فدَخَلَ إليه وعَرَف قدرَه على حداثته ، ومكَّنه من حديثه ، وكان الناسُ يَسمعون به - أي بسببه ، فيقال : إنه سَمِعَ من أبي كُرَيب أكثَرَ من مئةِ ألفِ حديث . ثم عاد إلى مدينة السلام : بغداد فكتب بها ولَزِمَ المُقامَ بها مدةً ، وتفقَّه بها وأَخَذ في علوم القرآن ، ورَوَى الشعر عن ثعلب ، قال أبو عُمَر محمد بن عبد الواحد الزاهد: سمعتُ ثعلباً يقول : قرأ عليَّ أبو جعفر الطبري شعر الشعراء ، قبل أن يكثر الناسُ عندي بمدة طويلة .

ثم غرَّب فخرج إلى مصر ، وكتب في طريقه عن المشايخ بأجناد الشام والسواحل والثغور ، وأكثَرَ منها ، ثم صار الى الفُسطاط في سنة ثلاث وخمسين ومئتين ، وكان بها بقيَّةٌ من الشيوخ وأهلِ العلم ، فأكثَرَ الكتابة عنهم من علوم مالك والشافعي وابنِ وهب وغيرِهم ، ثم عاد إلى الشام .

ثم رجع إلى مصر في سنة ست وخمسين ومئتين ، قال أبو جعفر : لما دخلتُ مصر لم يَبق أحدٌ من أهل العلم إلا لَقِيَني وامتَحنني في العلم الذي يَتحقَّقُ به .

فجاءني يوماً رجل ، فسألني عن شيء من العَرُوض ، ولم أكن نشطتُ له قبلَ ذلك ، فقلتُ له : عليَّ قولٌ أن لا أتكلَّم اليومَ في شيء من العروض ، فإذا كان في غدٍ فصِرْ إليَّ ، وطلبتُ من صديق لي « العَرُوض » للخليل بن أحمد ، فجاء به ، فنظرتُ فيه ليلتي ، فأمسيتُ غيرَ عروضي ، وأصبحتُ عَرُوضياً .

وفي خلال تَطوافه في البلدان ، وارتحالِه لتلقي العلوم من كبار العلماء ، لقي الألاقيَّ والشدائد ، ومَسَّه الجُوعُ والعُدمُ والإملاقُ غيرَ مرة ! حتى فَتَق كُمَّيْ قميصِه وباعهَما ، ليقتاتَ بثمنهما ! حين أبطأتْ عليه نفقةُ والده ! وأملَق وجاع حينما كان بمصر في حدود سنة ٢٥٦ .

قال أبو محمد عبد العزيز بن محمد الطبري : كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ ، على ما لا يجهله أحدٌ عَرَفه ، لجمعِهِ من علوم الإسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحد من هذه الأمة ، ولا ظَهَر من كُتُب المصنِّفين ، وانتشر من كُتُب المؤلِّفين ما انتَشَر له .

وكان راجحاً في علوم القرآن والقراءاتِ والتاريخ من الرسل والخلفاء والملوك ، واختلافِ الفقهاء ، مع الرواية كذلك ، على ما في كتاب « البسيط » و« التهذيب » و« أحكام القراءات » ، من غير تعـويل على المناولات والإجازات ، ولا على ما قيل في الأقوال ، بل يَذكُر ذلك بالأسانيد المشهورة .

وقد بان فضلُه في علم اللغة والنحو ، على ما ذكره في كتاب « التفسير » وكتاب « التهذيب » مخبِراً عن حاله فيه . وقد كان له قَدَمٌ في علم الجدل ، يدل على ذلك مناقضاتُه في كتبه على المُعارِضِين لمعاني ما أَتَى به . وكان يحفظ من الشعر للجاهلية والإسلام ، ما لا يَجهله إلا جاهل به .

وكان قد نَظَر في المنطِق والحساب والجبر والمقابلة ، وكثيرٍ من فنون أبواب الحساب ، وفي الطب ، وأَخَذ منه قسطاً وافراً ، يدل عليه كلامُه في الوصايا .

وكان فيه من الزهد ، والورع ، والخشوع ، والأمانة ، وتصفية الأعمال ، وصدقِ النية ، وحقائقِ الأفعال : ما دَلَّ عليه كتابُه « أدَبُ النفوس الجيِّدة والأخلاقِ النفيسة » . وكان شديدَ التوقي والحذر والنزاهة والورع . ومع ما كان فيه من الاشتغال بالتصانيف والحديث والإملاء : لا بُدَّ له مع ذلك من حِزبه من القرآن ، ويقال : إنه كان يقرأ كلَّ ليلة رُبعاً أو حظًّا وافراً .

وكان أبو جعفر مجوِّداً في القراءة موصوفاً بذلك ، يَقصِدُه القُرَّاءُ البُعَداءُ ومن الناسِ للصلاة خلفَه ، يَسمعون قراءتَه وتجويدَه ، قال أبو بكر بن مجاهد ـ أحمد بن موسى البغدادي ـ شيخُ القراء في عصره : ما سمعتُ في المِحراب أقرأ من أبي جعفر ابنِ جرير .

وقال أبو علي الطُّوْماري : كنتُ أحمل القنديل في شهر رمضان بين يدي أبي بكر بن مجاهد إلى صلاة التراويح ، فخَرَج ليلةً من ليالي العشر الأواخر من داره ، واجتاز على مسجد فلم يدخله وأنا معه ، وسار حتى انتهى إلى آخر سوق العَطَش ، فوقف بباب مسجد محمد بن جرير ، ومحمد يقرأ سورة الرحمن ، فاستمع قراءتَه طويلاً ثم انصرف ، فقلتُ له يا أستاذ تركتَ الناس ينتظرونك وجئت تسمعُ قراءةَ هذا ؟ ! فقال : يا أبا علي ، دَعْ هذا عنك ، ما ظننتُ أن الله تعالى خَلَقَ بَشَراً يُحسِنُ يَقرأُ هذه القراءة .

وكان أبو جعفر يَكره أن يَخُصَّ أحداً من الطلبة بشيء من العلم دون سائر الجماعة ، فحرَصَ أبو بكر بن مجاهد ـ مع موضعه في نفسِه وعند أبي جعفر ـ أن يَسمع منه منفرداً قراءةَ وَرْش عن نافع ، عن يونس بن عبد

الأعلى ، عنه ، وكان يُقصَدُ فيها ، فأبَى إلا أن يَسمعها مع الناس ، مما أثَّر ذلك في نفس أبي بكر بن مجاهد. وكان إذا قرأ عليه جماعةٌ كتاباً ، ولم يَحضره أحدُهم لا يأذَنُ لبعضهم أن يقرأ دون بعض . وإذا سأله إنسانٌ في قراءةِ كتاب وغاب لم يُقرِئه حتى يَحضُر .

وكان عازفاً عن الدنيا تاركاً لها ولأهلها ، يَرفَعُ نفسَه عن التماسها ، وكان كالقارىء الذي لا يَعرف إلا القرآن ، وكالمحدِّثِ الذي لا يَعرف إلا الحديث ، وكالحاسِبِ الذي لا يَعرف إلا الحساب ، وكان عالماً بالعبادات ، جامعاً للعلوم ، وإذا جَمعتَ بين كتبِه وكتبِ غيره ، وَجدتَ لكتبه فضلاً على غيرها .

وكان أبو جعفر ظريفاً في ظاهره ، نظيفاً في باطنه ، حَسَن العِشرةِ لمجالسيه ، متفقِّداً لأحوال أصحابه ، مُهذَّباً في جميع أحواله ، جميلَ الأدب في مأكلِه ، وملبسِه ، وما يَخُصُّه في أحوالِ نفسه ، منبسِطاً مع إخوانه ، حتى ربما داعَبَهم أحسنَ مُداعبة ، وربما جِيءَ بين يديه بشيء من الفاكهة ، فيُجرِي في ذلك المعنى ما لا يَخرُجُ عن العلم والفقه والمسائل ، حتى يكون كأجَدِّ جِدٍّ وأحسَنِ عِلم .

وقد كان يمضي إلى الدعوة يُدعى إليها ، وإلى الوليمة يُسأل فيها ، ويكون ذلك يوماً مشهوداً من أجله ، وشريفاً بحضوره ، وكان يَخرج مع بعضهم إلى الصحراء فيأكل معهم . وكان إذا دخل منزلَه بعد المجلس ، لا يكادُ يَدخُلُ إليه أحدٌ ، لتشاغُلِهِ بالتصنيف ، إلا في أمرٍ مهم[1] .

---

(١) قد يَرى القارىء أني توسَّعتُ في هذه الترجمة ، وذكرتُ فيها الكثيرَ من الأخلاق الخاصَّةِ للإمام ابن جرير الطبري ، وعَمْداً فعلتُ هذا : لمعرفةِ جزءٍ مما كانت عليه أخلاقُ الأئمة المعتبرين السالفين ، ولأنَّ معشراً مِنَّا ـ أخَصُّ طلبةَ العلم وأنا منهم ـ يفتقرُ إلى التأدُّب بما كان عليه الإمامُ أبو جعفر بنُ جرير ـ وأمثالُه ـ ،من أخلاقٍ اكتسبها من علمه=

وكان إذا أهدى إليه مُهدٍ هديةً مما يمكنه المكافأةُ عليه ، قَبِلَها وكافأه ، وإن كانت مما لا يمكنه المكافأةُ عليها رَدَّها واعتَذَر إلى مُهديها . ووجَّه إليه أبو الهيجاء بنُ حمدان ـ الأميرُ عمُّ سيفِ الدولة ـ ثلاثةَ آلاف دينار ، فلما نَظَر إليها عَجِبَ منها ، ثم قال : لا أقبلُ ما لا أقدِرُ على المكافأة عنه ، ومن أين لي ما أكافىءُ به عن هذا ؟ فقيل : ما لهذا مكافأة ، إنما أراد التقرب إلى الله عز وجل ، فأبى أن يَقبَله وردَّه إليه . وأهدى إليه أبو المحسن المحرَّرُ جارُه فَرْخَين ، فأهدى إليه ثوباً .

وكان يختلف إليه أبو الفرج الأَصْبَهاني ، الكاتب ، يَقرأ عليه كتبه ، فالتَمَس أبو جعفر حَصِيراً لصُفَّةٍ له صغيرة ، فدخل أبو الفرج الأصبهاني وأخَذَ مقدارَ الصُّفَّة ، واستَعمَل له الحَصِير ـ أي أوصى أن تُعملَ له ـ ، متقرِّباً بذلك له ، وجاءَهُ به وقد وَقَع موقعَه ، فلما خَرَج دعا ابنَه ـ أي ابنَ أبي الفرج ـ ودَفَعَ إليه أربعةَ دنانير ، فأبى أن يأخذها ، وأبى أبو جعفر أن يأخذ الحصيرَ إلا بها .

وقال أبو بكر بن كامل : كان أبو جعفر مَلِيّاً بما نَهَض فيه ، من أيِّ علم كان ، وكان متوقِّفاً عن الأخلاق التي لا تليقُ بأهل العلم ، ولا يُؤثِرُها إلى أن مات ، وكان يُحِبُّ الجِدَّ في كلِّ أحوالِه . وقال لنا أبو جعفر : ما حَلَلْتُ سَرَاويلي على حرام ولا حلال قط[1] . وسأله يوماً سائل عن نَسَبِه ، فقال :

= بالكتاب والسنةِ وسِيرةِ السَّلَف ، ومصاحبتِهِ لهم ، فأردتُ من ذكر أخلاقه الخاصَّة : الدرسَ والاستفادةَ والانطباعَ بها ، والله ولي التوفيق .

وطولُ هذه الترجمة اقتضاه طولُ الثناءِ الذي اتَّصَف به صاحبُها الإمامُ ابن جرير رحمةُ الله تعالى عليه ، قال أبو الطيب في مثل هذا المقام :

وقد أطال ثنائي طولُ لابِسِه   إنَّ الثناءَ على التِّنْبالِ تِنْبالُ !

(١) وجاء في « لسان الميزان » للحافظ ابن حجر ٥ : ١٠٢ ، في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري : « قال مَسْلَمةُ بن قاسم : كان محمد بن جرير حَصُوراً لا يَعرِف النساء ، ورَحَل من بلده في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فلم يزل طالباً للعلم مُولَعاً به إلى أن مات » .

محمدُ بنُ جرير ، فقال السائل : زِدنا في النَّسب ، فأنشَده لرُؤْبَة :

قد رَفَعَ العَجَّاجُ ذكري فـادْعُني بآسْمِي إذا الأنسابُ طالَتْ يَكْفِني

وحضرتُه حين حَضَرتَهْ الوفاةُ ، فسألتُه أن يَجعل كلَّ من عاداه في حِلّ ، وكنتُ سألتُه ذلك لأجل أبي عليٍّ الحسنِ بن الحُسَين الصوَّاف ، لأني كنتُ قرأتُ عليه القرآن ، فقال : كلُّ من عاداني وتكلَّم فيَّ في حِلّ ، إلا رجلاً رماني ببدعة .

وكانِ الصَّوَّافُ من أصحاب أبي جعفر ، وكانت فيه سلامة ، ولم يكن فيه ضبطُ رَوِيَّة العَقْل ، فلما أملى أبو جعفر « ذَيْلَ المذيَّل » ، ذَكَرَ أبا حنيفة وأطراه ، وقال : كان فقيهاً عالماً ورِعاً ، فتكلَّم الصوافُ في ذلك الوقت في أبي جعفر ، لأجل مدحِهِ لأبي حنيفة ، وانقطع عن أبي جعفر ، وبَسَط لسانَه فيه !

قال أبو بكر بن كامل : قال لي أبو علي محمد بن إدريس الجَمَّال ـ وكان من وجوه الشهود بمدينة بغداد ـ : حضرنا يوماً مع أبي جعفر الطبري وليمةً ، فجلستُ معه على المائدة ، فكان أجملُ الجماعة أكلاً ، وأظرفَهم عِشرة ، ما رأيتُ أظرفَ أكلاً منه ، كان يُدخِلُ يدَه في الغَضَارة ـ هي القصعة الكبيرة ـ ، فيأخذ منها لقمةً ، فاذا عاد بأُخرى ، كَسَح ـ أي مَسَح ـ باللقمة ما التَطَخ من الغَضَارة باللقمةِ الأولى ، فكان لا يَلتطِخُ من الغَضَارة إلا جانبٌ واحد .

وكان إذا تناول اللقمة ليأكل سَمَّى ، ووضَعَ يدَه اليسرى على لحيته ليُوقِّيها من الزُّهومة ـ يعني من أثر الذَّفَر ـ ، فاذا حَصَلَتْ اللقمةُ في فيه أزالَ يدَه ، وكان إذا جَلَس لا يكاد يُسمَعُ له تَنخُّمٌ ولا تَبصُّق ، ولا يُرى له نُخامة ، وإذا أراد أن يَمسح رِيقَه ، أَخَذَ ذُؤابةَ مِنديلِه ومَسَح جانبَيْ فيه .

قال أبو بكر بن كامل : ولقد حَرَصتُ مِراراً أن يَستويَ لي مثلُ ما يفعلُه ، فيَتعذَّرُ عليَّ اعتيادُه ! وما سمعتُه قطُّ لاحِناً ، ولا حالفاً بالله عز وجل . وكان حسَنَ القيامِ على نفسه .

وكان لا يَعدَمُ في الصيف الحَيْسَ ـ هو التَّمْر يُخلَطُ بالسَّمْن والأقِط ويُعجَنُ شديداً ، وربما جُعل فيه السَّويق ـ ، والرَّيحانَ واللَّيْنَوْفَر ـ ضَرْبٌ من الرياحين يَنبُتُ في المياهِ الراكدة ـ ، فإذا أكل نام في الخَيْش ـ ثيابٌ في نسجها رِقَّة ، وخُيوطُها غلاظ ، تُتَّخذُ من مُشَاقَةِ الكَتَّان ، تُلبَس في الحرّ عند النوم ـ ، في قميصٍ قصير الأكمام ، مصبوغٍ بالصَّنْدَلِ وماءِ الوَرْد .

ثم يقوم فيصلي الظهرَ في بيته ، ويكتبُ في تصنيفِه إلى العصر ، ثم يَخرُج فيصلي العصر ، ويَجلِسُ للناس يُقرِىءُ ويُقرَأُ عليه إلى المغرب ، ثم يَجلِسُ للفقه والدَّرْس بين يديه إلى العِشاءِ الآخِرة ، ثم يَدخُلُ منزلَه . وقد قَسَم ليلَه ونهارَه في مصلحةِ نفسه ، ودِينِه ، والخَلْق ، كما وفَّقه الله عزَّ وجل .

وكان أسمَرَ إلى الأُدْمَة ، أعينَ ، نحيفَ الجسم ، مَدِيدَ القامة ، فصيحَ اللسان ، كبيرَ اللحية ، ولم يُغيِّر شَيْبَه ، وكان السَّوادُ في شَعْرِ رأسه ولحيته كثيراً .

قال الأستاذ محمد كُرْد علي في « كنوز الأجداد » ص ١٢٣ ، في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري : « وما أُثِرَ عنه أنه أضاع دقيقةً من حياته في غير الإفادة والاستفادة ، رَوَى المُعَافَى بن زكريا عن بعضِ الثقات ، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبلَ موته ، وتوفي بعدَ ساعةٍ أو أقلَّ منها ، فذُكِرَ له هذا الدُّعاءُ عن جعفر بن محمد ، فاستدَعَى محبرةً وصحيفةً فكتبه ، فقيل له : أفي هذه الحال ؟! فقال : ينبغي للإنسان أن لا يدَعَ اقتباسَ

العلم حتى الممات » . انتهى .

قلتُ :رحمك الله تعالى يا أبا جعفر ، لقد استنفدت الجهد والدقائق والثواني في خدمة العلم وتحصيله ، ونشره وتدوينه ، فكنت إماماً وقُدوةً في حياتك وبعد مماتك ، ويصدق عليك قولُ القائل :

سَعِدَتْ أعينٌ رأتْك وقَرَّتْ والعُيونُ التي رأتْ من رآكا

وتوفي لأربع بقين من شوال سنة ٣١٠ ، عن ٨٦ سنةً ، عَزَباً لا زوجة حولَه ، ولا ولَدَ له بعدَه ، وإنما خلَّف وأبقى من العلم والمؤلَّفاتِ الحافلة ، ما لا يُنسَى ولا يُجهَل على وجه الدهر ، فكانت تآليفُهُ الكثيرةُ النادرةُ ، ذُريَّتَه الباقيةَ المذكِّرةَ به البارَّة ، بل كانت أدومَ تذكيراً به من النَّسْل والأولاد ، رحمةُ الله عليه .

قال أبو بكر الخطيب : ولم يُؤذَن به أحد ، فاجتمع على جنازته من لا يُحصِي عدَدَهم إلا اللَّهُ تعالى ، وصُلِّي على قبره عِدَّةَ شُهورٍ ليلاً ونهاراً ، ورثاه خَلْق كثير من أهل الدين والأدب .

وعَمِلَ الإمامُ الأديب اللغوي أبو بكر بن دُرَيْد (محمد بن الحسن) البصري ، المتوفى سنة ٣٢١ ، في رثائه قصيدةً رنَّانةً بلغَتْ ٣٥ بيتاً ، أوردها كاملةً الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٢ : ١٦٧ ـ ١٦٩ ، وأورد بعضَها الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٢ : ٧١٥ ، في ترجمته . وهي من أروع الشعر وأجزله ، وأصدقه وأفضله ، جسَّمَتْ أخلاقَ الإمام ابن جرير ، وسجَّلتْ فضائلَه . وسأسوقها بعد قليل .

وقد أفرد غيرُ واحد من العلماء سِيرتَه بالتأليف ، فمنهم صاحبُه وتلميذُه أبو بكر بن كامل ، وعبد العزيز بن محمد الطبري ،وعن هذين الكتابين نَقَل

ياقوت في « معجم الأدباء » مُعْظَمَ ترجمتِه ، كما أشار إلى ذلك في آخر ترجمة ابن جرير ١٨ : ٩٤ . وألَّف في سيرته أيضاً الوزيرُ جمالُ الدين القِفطي الحلبي (علي بن يوسف) ، المتوفى سنة ٦٤٦ ، وسمَّاه : « التحرير في أخبار محمد بن جرير » ، وذَكَرَ ذلك في كتابه « إنباه الرواة » ٣ : ٩٠، في ترجمة ابن جرير ، وقال : « وهو كتابٌ مُمْتِع » .

قصيدة الإمام ابن دُرَيد في رِثاءِ الإمام ابن جرير رحمهما الله تعالى

لن تَستطيع لأمرِ الله تعقيبا ... فاستَنْجِدِ الصبرَ أَوْ فاستشعِرِ الحُوْبا[١]

وافزَعْ إلى كَنَفِ التسليم وارْضَ بما ... قَضَى المُهَيْمِنُ مكروهاً ومحبوباً

إنَّ العَزَاء إذا عَزَّتْهُ جائحةٌ ... ذَلَّتْ عَريكتُهُ فانقاد مَجْنُوبا[٢]

فانْ قَرَنْتَ إليه العَزْمَ أيَّده ... حتى يعودَ لديه الحُزنُ مغلوبا

فارْمِ الأَسَى بالأُسَى تُطفِي مَواقِعُها ... جَمْراً خِلالَ ضُلوع الصَّدرِ مَشْبُوبا[٣]

من صاحَبَ الدهرَ لم يَعْدَمْ مُجَلْجِلَةً ... يَظَلُّ منها طَوالَ العيشِ منكوبا[٤]

إنَّ البَلِيَّة لا وَفْرٌ تُزعْزِعُه ... أيدي الحوادثِ تشتيتاً وتشذيبا[٥]

ولا تَفرُّقُ أُلَّافٍ يَفُوتُ بهم ... بَيْنٌ يُغادِرُ حَبْلَ الوَصْلِ مقضوبا[٦]

---

(١) الحُوْب بضم الحاء : الحُزن . واستشعره : لَبِسَه ودام عليه .

(٢) العزاء : الصبر . والجائحة هنا : المصيبة . وعَزَّته : غلَبَتْه. والمجنوبُ : اللَّيِّنُ السهل . يريد : أن الصبر إذا غلَبَته شِدَّةُ المصيبةِ ضَعُفَ وتليَّن .

(٣) الأَسَى بفتح الهمزة : الحُزن . والأُسَى بضم الهمزة : جمعُ أُسوة ، وهي ما يأتسِي به الحزينُ ويَتعزَّى أي يَتصبَّر ، ومنه قولهم : إنَّ الأُسَى تَدفعُ الأَسَى ، ذكره الزمخشري في « أساس البلاغة » .

(٤) المجلْجِلَةُ هنا يرادُ بها المصيبةُ ذاتُ الوقع الشديد ، وهي لشدتها تُشبَّهُ بصوتِ الرعدِ القاصف .

(٥) الوَفْرُ : المالُ الكثيرُ الواسع . تُزعزعه : تُفرِّقُه .

(٦) مقضوباً : مقطوعاً .

لكنَّ فِقدانَ من أضحى بمَصْرَعِه   نـورُ الهُدَى وبَهـاءُ العلم مَسْلُوبا

* * *

أودَى أبو جعفر والعلمُ فاصطحبا   أعظِمْ بذا صاحباً إذْ ذاك مصحوبا[1]

إنَّ المَنِيَّـةَ لم تُتلِف بـه رجـلاً   بـل أتلفَتْ عَلَماً للدِّين منصـوبـا

أهْدَى الرَّدَى للثَّرَى إذْ نالَ مُهْجَتَه   نَجْماً على من يُعادِي الحقَّ مَصْبُوبا

كان الزمـانُ به تَصْفُـو مَشاربُـه   فالآنَ أصبحَ بالتكديـر مقطوبـا[2]

كـلاَّ وأيـامِـهِ الغُـرِّ التي جَعَلَتْ   للعلم نـوراً وللتقـوى مَحـاريبـا

لا يَنْسَرِي الدهرُ عن شِبْهٍ له أبداً   ما استَوقَفَ الحجُّ بالأنصابِ أُرْكُوبا[3]

أوْفَى بعَهْدٍ وأوْرَى عند مَظْلَمةٍ   زَنْـداً وآكَـدَ إبـرامـاً وتـأديبـا

منـه وأرْصَنَ حِلماً عنـد مُزْعِجةٍ   تُغـادِرُ القُلَّبِيَّ الذِّهْنِ منخـوبا[4]

إذا انتَضَى الرأيَ في إيضاح مشكلةٍ   أعاد منهجها المطموسَ ملحوبا[5]

لا يَعْزُبُ الحِلمُ في عَتْبٍ وفي نَزَقٍ   ولا يُجـرِّعُ ذا الزَّلاَّتِ تَثْـريبا[6]

لا يُولِجُ اللَّغْـوَ والعَوْرَاءَ مَسْمَعـه   ولا يُقـارِفُ مـا يُغْشِيـه تـأنيبـا[7]

إن قال قادَ زِمامَ الصدقِ مَنْطِقُه   أو آثَرَ الصمتَ أولى النفسَ تهييبا

* * *

---

(١) أودى : هَلَك ومات .

(٢) مقطوباً : ممزوجاً .

(٣) لا ينسري الدهر : لا ينكشف الزمانُ عن شبيهٍ له . والأُركوب بمعنى الرَّكْب لكنه أكثر منه عدداً ، والركب : الجمعُ يَبلغُ العشرةَ فصاعداً .

(٤) القُلَّبِيّ هنا : البصيرُ بتقليب الأمور الصعبة ، يَخرُجُ منها بذكائه وفطانة ذهنه . والمنخوب : الضعيفُ عن حَلِّ المشكلات والصعاب .

(٥) انتضى الرأيَ : أبداه وأظهره . وملحوباً : واضحاً جليّاً .

(٦) تثريباً : لوماً وتعييراً بزلاَّته .

(٧) يعني أنه لا يضجر ويتبرم مما ينوبه ويقع عليه من النائبات .

لقلبه ناظِرًا تقوى سَمَا بهما فأيقظَ الفِكرَ ترغيباً وترهيبا
تَجْلُو مواعظُه رَيْنَ القلوب كما يجلو ضِياءُ سَنَا الصُّبحِ الغَيا هِيبَا[١]
سِيَّانِ ظاهِرُه البادِي وباطِنُه فلا تَراه على العِلاّتِ مَجْدُوبا[٢]
لا يأمَنُ العجزَ والتقصيرَ مادِحُه ولا يَخافُ على الإِطنابِ تكذيبا
ودَّتْ بقاعُ بلادِ الله لو جُعِلَتْ قَبْراً له فحَبَاها جِسْمُهُ طِيبا
كانت حياتُك للدنيا وساكنِها نُوراً فأصبَحَ عنها النُّورُ محجوبا

* * *

لو تَعلمُ الأرضُ ما وارَتْ لقد خَشَعَتْ أقطارُها لكَ إجلالاً وترحيبا
كنتَ المقوِّمَ من زيغ ومن ظَلَع وفَّاك نُصحاً وتسديداً وتأديبا[٣]
وكنتَ جامعَ أخلاقٍ مُطهَّرةٍ مُهذَّباً من قِرافِ الجهل تهذيبا[٤]
فإن تَنلك من الأقدار طالِبَةٌ لم يَثْنِها العجزُ عما عَزَّ مطلوبا
فإنَّ للموتِ وِرْداً مُمْقِراً فَظِعاً على كراهتِهِ لا بُدَّ مشروبا[٥]
إن يَندبوك فقد ثُلَّتْ عُروشُهمُ وأصبح العِلمُ مَرْثِيّاً ومندوبا[٦]
ومن أعاجيب ما جاء الزمانُ به - وقد يُبينُ لنا الدَّهْرُ الأعاجيبا -
أنْ قد طوَتْكَ غُموضُ الأرضِ في لِحَفٍ وكنتَ تملأُ منها السهلَ واللُّوبَا[٧]

---

(١) الغياهيب جمع غَيْهَب ، وهو الظُّلمة .

(٢) مجدوبا : خاليا من القِرى والضيافة .

(٣) الظَّلَع بفتح اللام : المَيْل عن الحق . وقولُه : وفَّاك نُصحاً . . . أي وَفَّاك الله نُصحاً . . . أي أعطاك ذلك وافياً تاماً على أكملِهِ وأوفاه .

(٤) قِراف الجهل : مُقارَبَته .

(٥) مُمقِراً : مُرّاً شديدَ المرارة .

(٦) ثُلَّتْ : انهدمَتْ وتَقوَّضَتْ . والعُروش هنا : أركانُ العلم ، جمعُ عَرْش وهو ركنُ الشيء . والضمير في قوله : يندبوك ، يعود على العلماء ، المفهوم من المقام .

(٧) غُموضُ الأرض : جمعُ غَمْض وهو المكانُ المطمئِنُ المنخفِض . واللِّحَفُ بكسر اللام وفتح الحاء جمعُ لِحْف بكسر اللام وسكون الحاء ، وهو أصلُ الجَبَل . واللُّوب بضم اللام : الوَعْر .

انتهت قصيدة الإمام ابن دُرَيد في رثاء الإمام ابن جرير . وما سَبَق من الجُمَل التي نقلتُها في ترجمة الإمام ابن جرير : مصداقٌ لما جاء فيها .

وما أحقَّه رحمه الله تعالى ـ وقد أدأب نَفْسَه في تدوين العلم وكتابةِ التاريخ ، بقول العلامة عبد الرحمن بن إسماعيل الخَوْلاني النَّحْوي ، المتوفى سنة ٣٦٦ ، من قصيدة في رثاء شيخِه مؤرِّخِ مصر ومحدِّثِها (أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري الصَّدَفي) ، المولود سنة ٢٨١ ، والمتوفى سنة ٣٤٧ رحمه الله تعالى ، كما في ترجمته في « وفَيَات الأعيان » للقاضي ابن خَلِّكان ١ :٢٧٨ :

ما زِلتَ تَلْهَجُ بالتاريخ تكتبُه ... حتى رأيناكَ في التاريخ مكتوبا!

وأنا أُوردُ هنا القصيدةَ التي منها هذا البيتُ لطرافتِها وتَجانُسِ مُناسَبَتِها ، وتلبيةً لتشوُّفِ القارىء إليها ، وقصيدةُ ابنِ دُرَيد أبلغ .

بَثَثْتَ عِلَمك تشريقاً وتغريبا ... وعُدْتَ بعدَ لذيذِ العيشِ مندوبا
أبا سعيدٍ وما نألُوْك أن نَشَرَتْ ... عنك الدواوينُ تصديقاً وتصويبا
ما زِلتَ تَلْهَجُ بالتاريخ تكتبُه ... حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا!
أرَّختُ موتَك في ذُكْرِي وفي صُحُفي ... لمن يُؤرِّخُني إذْ كنتُ منسوبا!
نَشرتَ عن مِصَر من سُكَّانها عَلَماً ... مبَجَّلاً بجَمالِ القومِ منصوبا
كشفتَ عن فَخْرِهم للناسِ ما سَجَعَتْ ... وُرْقُ الحَمَامِ على الأغصانِ تطريبا
أعربتَ عن عَرَبٍ، نَقَّبتَ عن نُخَبٍ ... سارَتْ مناقبُهم في الناسِ تنقيبا
أَنْشَرتَ ميِّتَهم حُبّاً بِنِسْبتِهِ ... حتى كأنْ لم يَمُتْ إذْ كان منسوبا
إنَّ المكارم للإحسان مُوجِبَةٌ ... وفيك قد رُكِّبَتْ يا عبدُ تركيبا
حُجِبتَ عنا وما الدنيا بمُظهرةٍ ... شخصاً وإن جَلَّ إلا عاد محجوبا!
كذلك الموتُ لا يُبقِي على أحَدٍ ... ـ مَدَى الليالي ـ من الأحبابِ محبوبا!

٧ - ومن العلماء العزاب

الإمام أبو بكر بن الأنباري (محمد بن القاسم بن محمد) ، النَّحْويُّ ، المفسِّر ، الأديب ، الراوية ، الحَفَّاظ بَحْرُ الحفظ ، البغدادي ، المولود سنة ٢٧١ ، والمتوفى سنة ٣٢٨ رحمه الله تعالى .

لقد امتنع هذا الإمامُ العالمُ طولَ حياتِه من تناول الطيِّبات من الأطعمة - وقد قُدِّمَتْ له على موائد الملوك - إبقاءً على حفظه ، وزَهِدَ في اقتراب النساء - بعد أن دَخَلت المرأة الحسناءُ الحلالُ دارَه وبيتَه - حِفاظاً على تفرُّغِه لعلمه ، فكان أُعجوبةً في حفظه ، وفي علمه ، وفي تأيُّمه وزهدِه ، فلم يكن له نسلٌ ولا ذُريَّةٌ من بعدِه سوى أكثَرَ من ثلاثين مؤلَّفاً ، تزيدُ أوراقُها على أكثر من خمسين ألفَ ورقة ! فلله دَرُّه ما أغلى العلمَ على قلبه ؟ وإليك شيئاً من ترجمته :

جاء في ترجمته في « تاريخ بغداد » للخطيب ٣ : ١٨١ - ١٨٦ ، « وإنباه الرواة على أنْباه النحاة » للقِفطي ٣ : ٢٠٢ - ٢٠٧ ، و« وفيات الأعيان » لابن خَلِّكان ١ : ٥٠٣ ، ما يلي :

كان من أعلم الناس بالنحو والأدب ، وأكثرِهم حفظاً له ، سَمِعَ عالَماً من الأئمة في زمانِه ، ورَوَى عنه مثلُ ذلك ، وكان صدوقاً فاضلاً دَيِّناً خيِّراً من

أهل السُّنَّة ، وصنَّف كتباً كثيرة في علوم القرآن ، وغريبِ الحديث والمُشكِل ، والوقفِ والابتداء .

وكان يَحفظُ ـ فيما ذَكَر ـ ثلاثَ مئةِ ألف بيتٍ من الشعر ، شاهدةً في القرآن ، وكان يُملي من حفظِه لا من كتاب ، وكانت عادتُه في كل ما يُكتَبُ عنه هكذا ، في كتبه المصنَّفة وأماليه المشتمِلةِ على الفوائد اللغوية والنحوية والأخبار والتفاسير والأشعار .

ومَرِض مرةً ، فدخل عليه أصحابُه يعودونه ، فرأَوْا من انزعاج أبيه وقَلَقِه عليه أمراً عظيماً ، فطيَّبوا نفسَه ، ورجَوْا له عافيةَ أبي بكر ، فقال لهم : كيف لا أقلَقُ وأنزعِجُ لعِلَّةِ من يَحفظُ جميعَ ما ترون ، وأشار لهم إلى حِيْرِيّ مملوءٍ كتباً[1] .

---

(١) الحِيري هنا صِفةٌ لموصوفٍ محذوف هو (حُبّ) ، والحُبُّ هو الجَرَّةُ الكبيرة الضخمة ، وقيل له : (حُبٌّ حِيري) ، لأنه كان يُصنَع في (الحِيرة) مدينةٍ بالعراق كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، وقد دَخلَتْ فيها منذ عهد بعيد ، وكانت حاضرةَ ملوكِ العربِ المناذرة ، وتألَّقَتْ فيها الحضارةُ بأنواعها ، وشَهِدَتْ ازدهاراً ورُقيّاً في الصناعاتِ المختلِفة ، المعهودةِ في العصر الجاهلي وبعدَه ، ومنها صِناعةُ الجِرار والقِلال ودِنانِ الخمر ، فأُتقِنَتْ فيها صِناعةُ الحِبَاب ، ونُسِبَتْ إليها فقيل : (حُبٌّ حِيريٌّ) على القياس ، و (حُبٌّ حارِيٌّ) على غير القياس مسموعاً من العرب ، ثم طُوي ذكرُ الموصوفِ : (حُبّ) لاشتهار ذلك ، واقتُصِر على الصِّفَةِ اختصاراً على عادة الناس في الشيء المعروف عندهم ، فقيل : (حِيريّ) ، و(حارِيّ) .

والحُبُّ أكبَرُ من القُلَّةِ والدَّنّ ، والقُلَّةُ دون الحُبِّ وأكبرُ من الدَّنّ ، كما ذكره الإمام ابن سِيْدَهْ في « المخصَّص » ١١ : ٨٣ . فالحُبُّ أكبرُ الأوعية الحافظة التي كانت عندهم ، وجمعُه : حِبَاب . وكان العلماء في القديم يحفظون في (الحِبَاب) الكتبَ والأوراقَ وما يخافون عليه التلفَ والضياع .

وعلى تقادُمِ الزمن ، وبُعدِ العهد ، وتغايُرِ الوسائل المستعملة في أمور الحياة : جُهِل المقصودُ من لفظ (حِيريّ) و (حارِيّ) من كثير من المتأخرين ، وغَلِط في تفسيره غالطون من الذين عُرِفوا بالعلم والتحقيق ، وسبَبُ ذلك غفولُهم عن أنه صِفةٌ لموصوف ، =

....

=ومن لم يَعرِف الموصوفَ أخطأ في تفسير الصفة ولا ريب .

١ - فمنهم مصحح « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي : الشيخُ محمد حامد الفقي ، فقد علَّق فيه ٣ : ١٨٢ على جملةِ : (وأشار لهم إلى حيري مملوء كتباً) بقوله : « في القاموس : الحير شبه الحظيرة » . انتهى كلامه .

وفيه أخطاء كثيرة ، وذلك أن اللفظ المفسَّر منسوب ، وهذا الذي نقله عن القاموس : (الحير) غيرُ منسوب ، ثم المنسوب صفة لموصوف ، وهذا اسمٌ لذات المسمَّى لا وصفٌ له ، ثم المنسوب بكسر الحاء نسبة إلى (الحِيرة) ، وهذا : (الحَيْرُ) بفتح الحاء لا غير ، ثم (الحَيْرُ) شِبهُ الحظيرة تُوضَعُ فيه الدَّوَابّ ، و(الحِيريّ) وِعاء توضع فيه الكتب ، ففي هذا التفسير أغلاطٌ متراكمة ! تَورَّطَ فيها من رأى كلامَ الشيخ الفقي وتعليقَه على « تاريخ بغداد » !! وقَنِعَ به !

٢ - ومنهم محقِّقُ كتاب « نُزهة الألِبَّاء في طبقات الأدباء » لأبي البركات عبد الرحمن بن الأنباري : الدكتور إبراهيمُ السامرائي ، العراقي ، في الطبعة التي ساعدَتْ جامعة بغداد على نشرها ، وطُبِعَتْ في بيروت (الطبعة الثانية سنة ١٩٧٠ ميلادية) ، فقد علَّق فيه ص ٢٠٣ على جملةِ : (وأشار إلى حيري مملوء كتباً) بقوله : « كذا في تاريخ بغداد وفي إنباه الرواة . وفي القاموس : الحير شبه الحظيرة . أمَّا في نسخة ق ونسخة د فهو : حاري » . انتهى كلامه .

وفيه أخطاء كثيرة أيضاً ، فقد غلَّطَ لفظ (حيري) واعتبره تصحيفاً ، وأشار إلى ذلك بقوله متبرِّءاً : « كذا في تاريخ بغداد وإنباه الرواة » . وهذا الذي تبرَّأ منه بقوله : (كذا) هو الصواب . ثم تابَعَ مصحِّحَ « تاريخ بغداد » ، فنَقَل ما قاله على أنه الصواب ! وارتضى تفسيرَه وقولَه : « في القاموس : الحير شبه الحظيرة » ! ثم نَقَل ما جاء في نسختَيْ ق و د ، وهو (حارِيٌّ) ، فجعَلَه من الخطأ والتحريف ! وهو الصواب بعَيْنِه .

٣ - ومنهم محقِّقُ « نُزهة الألِبَّاء » أيضاً : الأستاذُ محمدُ أبو الفضل إبراهيم ، في الطبعة المصرية التي طَبَعَتْها دار نهـضة مصر سنة ١٣٨٦ = ١٩٦٧ بتحقيقه ، فقد علَّق فيه ص ٣٧١ على جملةِ (وأشار إلى حارِيّ مملوء كتباً) بقوله : « كذا في الأصل وإنباه الرواة وتاريخ بغداد . وفي القاموس : الحير شبه الحظيرة . وفي نسخة ط (حاري) ، قال في اللسان : أنماط تُعمَل بالحيرة ، تُزَيَّنُ بها الرحال » . انتهى كلامه .

وفيه أغلاط متزايدة على ما سَبَق ! فقد أثبتَ في النص (حاري) وظنَّها (حيري) ، ولهذا قال : كذا في الأصل وإنباه الرواة وتاريخ بغداد . وفي نسخة ط (حاري) . ثم نَقَل عبارة القاموس : الحير شبه الحظيرة ! وزاد ضِغْثاً على إبَّالةٍ بتفسيره (الحاري) بما نقله=

....

= عن لسان العرب : أنماط تُعمَل بالحيرة ، تُزَيَّن بها الرحال . فحوَّل الموضوعَ وقَلَبه رأساً على عقب ! ونَقَل اللفظَ المفسَّرَ من وِعاءٍ للكتب إلى (أنماط تُعمَل بالحيرة ، تُزَيَّن بها الرحال) ! وهذا شيء لا دخل له هنا !

٤ ـ ونحوَ هذا علَّق قديماً هو نفسُه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، على الجملةِ نفسِها في « إنباه الرواة » للقِفْطي ٣ : ٢٠٢ ، المطبوع بدار الكتب المصرية بتحقيقه سنة ١٣٧٤ = ١٩٥٥ ، فقال : « وأشار لهم إلى حيري مملوء كتباً . كذا في الأصلين وتاريخ بغداد ، وفي القاموس : الحير شبه الحظيرة » . انتهى كلامُه . وفيه ما تقدم بيانُه من الأغلاط .

٥ ـ وجاء في « طبقات الحنابلة » لابن أبي يعلى بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي أيضاً ، في ترجمة (أبي القاسم ابن الأنباري) ٢ : ٧٠ ، هكذا : (وأشار لهم إلى خيبري مملوء كتباً) . انتهى ، وهو تحريف عن (حِيريّ) .

٦ ـ ووقع في (الحِيري) أو (الحاريّ) هذا تحريفات عجيبة ! فجاء في « معجم الأدباء » لياقوت الحموي من طبعة الدكتور مرجليوث ، المطبوعة بمطبعة هندية بالقاهرة الطبعة الثانية سنة ١٩٣٠ ميلادية ، في ترجمة الإمام (محمد بن جرير الطبري) ٦ : ٤٤٤ ما يلي : « كان أبو الحسن بنُ المُفَلِّس الفقيه ـ وكان أفضلَ من رأيناه فَهْماً وعِنايةً بالعلم ودَرْساً له ـ لعنايتِهِ بدَرْس العلم ، تُعبَّى كتبُه في جانبِ حارته ، ثم يَبتدِىءُ فيَدرُسُ الأوَّلَ فالأَوَّل منها، إلى أن يَفرُغ منها ، وهويَنقلُها إلى الجانبالآخر ، فاذا فَرَغ منها عاد في دَرْسِها ونقلِها إلى حيث كانت . . . » . انتهى . وقولُه هنا : (في جانب حارته) تحريفٌ عن (في جانب حارِيّ له) ، أو تحريفٌ عن (في جانبِ حارِيِّهِ) .

٧ ـ ووقعت هنا العبارةُ نفسُها في « معجم الأدباء » أيضاً ، من طبعة الدكتور أحمد فريد الرفاعي ، المطبوعة بمطبعة دار المأمون في القاهرة بتصحيح الأستاذ عبد الخالق ، في ترجمة الإمام (محمد بن جرير) نفسِه ١٨ : ٦٨ باللفظ التالي : « . . . تُعَبَّى كتبُه في جانب حائر ، ثم يَبتدىء فيَدْرُسُ الأوَّلَ فالأوَّلَ . . . » . وعلَّق الأستاذ عبد الخالق عليها بقولِهِ : « الحائرُ : المكانُ المطمئِنُّ » . انتهى .

وهذا كلُّه خَبْط وخَلْط ! وَقَع من جرَّاءِ حَذْفِ الموصوفِ (حُبّ) ، فجاءَتْ هذه العجائبُ الغرائبُ من التصحيفات والتعليقات والتفسيراتِ الخاطئة . ومعذرةً من الإطالة في تصويب هذه الكلمة ، فاني أردتُ نَفْيَ الاضطراب فيها ، وكشفَ معناها على الصواب لمن بعدي من طلبة العلم وأهلِه ، نَفَعني اللَّهُ بصالح دعواتهمْ .

وكان أحفظَ الناس للغة والنحو والشعر وتفسير القرآن ، وحدَّث أنه يَحفظُ عشرين ومئةَ تفسيرٍ من تفاسير القرآن بأسانيدها . وقال تلميذه أبو العباس بن يونس : كان أبو بكر بن الأنباري آيةً من آيات الله في الحفظ . وقال تلميذه أبو علي القالي ـ الإمام الأديب المشهور : ـ كان أبو بكر بن الأنباري يَحفظ ـ فيما ذَكر ـ ثلاثَ مئةِ ألفِ بيتٍ شاهدةً في القرآن ، وكان ثقةً دَيِّناً صدوقاً .

قال محمد بن إسحاق النديم في « كتابه » : كان أفضلَ من أبيه وأعلم،، في نهايةِ الذكاء والفِطنةِ وجَوْدةِ القريحة وسُرعةِ الحفظ ، وكان مع ذلك وَرِعاً من الصالحين ، لا تُعرَفُ له زَلَّة ، وكان يُضرَبُ به المثلُ في حضور البديهة وسُرعةِ الجواب .

وحكى أبو الحسن العَرُوضي ، قال : كان ابنُ الأنباري يَترَدَّدُ إلى أولاد الراضي بالله ـ الخليفةِ العباسي أحمد بن المقتدر ، بُويع سنة ٣٢٢ ، وتوفي سنة ٣٢٩ ـ ، فكان يوماً من الأيام قد سألَتْهُ جاريةٌ عن شيء من تفسير الرؤ يا ؟ ، فقال لها : أنا حاقِـن ـ أي يَحتاجُ إلى الذهابِ لبيتِ الخلاء للبَوْل ـ ثم مَضَى ، فلما كان من الغَد عاد وقد صار مُعَبِّراً للرؤ يا ، وذاك أنه مَضَى من يومِهِ فدَرَس كتابَ الكِرْماني ـ في تعبير الرؤ يا ـ وجاء .

قال حمزة بن محمد الدقاق : وكان مع حفظِه زاهداً متواضعاً ، حكى أبو الحسن الدارقطني أنه حضرَهُ في مجلسِ إملائِهِ يومَ الجمعة ، فصحَّف اسماً أُورَدَه في إسنادِ حديث ، إما كان حبَّان فقال : حيَّان ، أو حيَّان فقال : حبَّان .

قال أبو الحسن : فأعظمتُ أن يُحمَل عن مثلِهِ في فضله وجلالتِه وَهَمٌ ، وهِبتُه أن أُوقِفَه على ذلك ، فلما انقضى الإملاء ، تقدَّمتُ إلى المستملي وذكرتُ له وهَمَهُ ، وعرَّفتُه صوابَ القول فيه وانصرفتُ . ثم حضرتُ الجمعةَ

الثانيةَ مجلسَه ، فقال أبو بكر للمستملي : عرِّف جماعةَ الحاضرين أنَّا صحَّفنا الاسمَ الفلاني ، لما أملينا حديثَ كذا في الجمعةِ الماضية ، ونبِّهنا ذلك الشابُّ على الصواب ، وهو كذا ، وعرِّفْ ذلك الشابَّ أنَّا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال .

وحكى أبو الحسن العَرُوضي ، قال : اجتمعتُ أنا وأبو بكر بن الأنباري عند الراضي بالله على الطعام ، وكان أبو بكر قد عَرَّف الطباخَ ما يأكل ، فكان يُسوِّي له قَلِيَّةً يابسةً ، قال : فأكلنا نحن من ألوان الطعام وأطايبه ، وهو يُعالجُ تلك القَلِيَّة ، ثم فرغنا ، فأُتِينا بَحَلْوَاء فلم يأكل منها شيئاً ، وقام وقمنا إلى الخَيْش - هي ثياب في نَسْجها رِقَّة ، وخُيوطُها غِلاظ من مُشَاقَةِ الكَتَّان - ، فنام بين يدي الخَيْش ، ونمنا نحن في خَيْشٍ يُنافَس فيه ، ولم يَشرب ماءً إلى العصر .

فلما كان بعد العصر ، قال : يا غلام ، الوظيفة ، فجاءه بماءٍ من الحُبّ - أي الخابية - ، وتَرَك الماءَ المزمَّل بالثَّلْج ، فغاظني أمرُه ، فصِحتُ صيحةً : يا أميرَ المؤمنين ! فأمَرَ بإحضاري ، وقال : ما قِصَّتُك ؟ فأخبرتُه ، وقلتُ : يا أمير المؤمنين ، هذا يَحتَاجُ أن يُحالَ بينه وبين تدبيرِ نفسِه ، لأنه يَقتلُها ولا يُحسِنُ عِشرتَها ، قال : فضَحِكَ وقال : لَهُ في هذا لَذَّةٌ ، وقد جَرَتْ به العادةُ ، وصار آلِفاً له فلن يَضرَّه .

ثم قلت : يا أبا بكر ، لم تفعلُ هذا بنفسك ؟ قال : أُبقِي على حِفظي ، قلت : قد أكثر الناسُ في حفظك ، فكم تحفظ ؟ قال : أحفَظُ ثلاثةَ عشَرَ صُندُوقاً . قال محمد بن جعفر التميمي النحوي : وهذا ما لا يُحفَظُ لأحدٍ قبلَه ولا بعدَه .

وكان يأخُذ الرُّطَبَ يَشمُّهُ ويقول : أمَا إنك لطيِّب ، ولكنْ أطيَبُ منك حِفظُ ما وَهَب الله لي من العلم . ولما وقع في عِلَّةِ الموت أكَلَ كل شيء

يشتهيه وقال : هي عِلَّةُ الموت !

وَمَضَى يوماً إلى النخَّاسِين - بيَّاعي الرَّقِيق من العَبِيد والإماء - ، ورأى جاريةً تُعرَضُ حسنةَ الصُّورةِ كاملةَ الوصف ، قال : فوقعَتْ في قلبي ، ثم مضيتُ إلى دار أمير المؤمنين الراضي بالله ، فقال لي : أين كنتَ إلى الساعة ؟ فعرَّفتُه ، فأمَرَ بعضَ أَسْبابِه - أي غِلمانِه - فمَضَى فاشتراها ، وحَمَلها إلى منزلي ، فجئتُ فوجدتُها ، فعَلِمتُ الأمرَ كيف جَرَى .

فقلتُ لها : كُوني فَوْق إلى أن أَستَبْرِئكِ - أي أتبيَّنَ براءةَ رَحِمِكِ من الحَمْل ، وذلك بحلول الحيضِ لها - ، وكنتُ أطلُبُ مسألةً قد اختلَّتْ عليّ ، فاشتَغَل قلبي عن علمي ! فقلتُ للخادم : خُذْها وامضِ بها إلى النخَّاسين ، فليس قَدْرُها أن تَشغَل قلبي عن علمي ، فأَخَذها الغلام .

فقالت : دَعْنِي أُكلِّمُه بحرفينِ ، فقالَتْ : أنت رجلٌ لك مَحَلٌّ وعَقْل ، وإذا أخرجتَني ولم تُبيِّن لي ذنبي ، لم آمَنْ أن يَظُنَّ الناسُ بي ظناً قبيحاً ، فعرِّفْنِيهِ قَبْلَ أن تُخرِجَني ، فقلتُ لها : مالكِ عندي عَيْب ، غيرَ أنكِ شَغَلْتِني عن علمي ، فقالَتْ : هذا أسهلُ عندي .

قال : فبلَغَ الراضيَ بالله أمرُه ، فقال : لا ينبغي أن يكونَ العلمُ في قلبِ أحدٍ أحلَى منه في صَدْرِ هذا الرجل ! » . رحمةُ الله تعالى عليه .

٨ - ومن العلماء العزاب

إمامُ أئمةِ العربية في عصره : أبو علي الفارسيُّ (الحسن بن أحمد) ، المولود سنة ٢٨٨ ، والمتوفى سنة ٣٧٧ عن ٨٩ سنة رحمه الله تعالى . ولد في مدينة (فَسَا) من بلاد فارس ، فيقال في نسبته : الفارسي ، والفَسَوِي ، وطلَبَ العلم ، ثم رحل الى بغداد ودخلها سنة ٣٠٧ وأقام بها .

ثم جال ودار في البلدان ، ودخل الشام فزار حلب وطرابلس ومَعَرَّة النعمان ، وأقام بحلب سنة ٣٤١ عند الأمير سيف الدولة بن حمدان نحوَ سبع سنين ، وجرَتْ بينه وبين الشاعر أبي الطيب المتنبي مجالس ، وامتُحِنَ بخصومة ابن خالَوَيْه النَّحْوي بحلب ، وكان هذا العالمُ من خُلَصاءِ سيف الدولة وآثَرِهم عنده ، فلم تَطِب لأبي علي الإقامةُ هناك .

تَرَكَ أبو علي مدينة حلب ورَجَع إلى بلاد فارس ، ووَرَد مدينة شِيراز سنة ٣٤٨ ، فَلَبِثَ فيها عشرين عاماً منقطعاً إلى المَلِك عضد الدولة بن بُوَيْه ، وتقدَّم عنده ، وعلَتْ منزلتُه ، وعلَّمه النحو ، حتى كان الملِكُ عضدُ الدولة يقول : أنا غلامُ أبي علي النَّحْوي في النحو ، وصنَّف أبو علي له كتابَ « الإِيضاح » وكتابَ « التكملة » ، ولما استَولى عضدُ الدولة على بغداد ، عاد أبو علي إليها ، وأقام فيها إلى أن تُوفي منتقلاً إلى رحمة الله تعالى .

وكان أبو علي في رحلاته وانتقالاته في البلاد ، يُجالس العلماء ، ويحاضرُ الطلاب ، ويُجيب عن الأسئلة العويصة التي توجه إليه ، ويؤلف فيها وفي غيرها الكتب ، وسُئل في حلب ، وشيراز ، وبغداد ، والبصرة ، وغيرها ، أسئلةً كثيرةً من كبار العلماء ، فصنَّف فيها الكتبَ إجابةً للسائلين ، وسمَّاها بنسبتها إلى البلد الذي أُلِّفَتْ فيه ، مثل « البغداديات » ، و« البصريات » ، و« الحلبيات » ، و« الشيرازيات » .

وبارك الله في عمر أبي علي ، فعاش نحو تسعين سنة ، يخدم العلم وأهله ، ويؤلف في علوم القرآنِ وعلومِ العربية التصانيفَ الفريدة ، ولم يتزوج ولم يُعقِب ، وإنما كانت ذُرِّيَّتُه ونَسْلُه : مؤلَّفاتِه وتصانيفَه التي بَقِيَتْ بعده إلى يومنا هذا ، وقد بلغت نحو ٢٥ كتاباً .

منها « الحجة » في عِلَل القراءات السَّبْع ، في ستة مجلدات ، و« التذكرة » في علوم العربية عشرين مجلداً ، و« الإيضاح » في النحو ، و« شرح أبيات الإيضاح » ، و« المسائل القَصْرِيَّة » ، و« المسائل العَسْكريَّة » ، و« الأهوازيات » ، و« المسائل الكِرْمانية » ، و« العوامل المِئَة » ، و« المسائل الذَّهَبِيَّات » ، « والمسائل المَجْلِسيَّات » ، و« تعليقة » على كتاب سيبويه ، و« جواهر النحو » ، و« الهَيْثَميات » ، وغيرُها .

وكان الإمام ابن جِنِّي من أخصِّ تلامذةِ الإمام أبي علي الفارسي ، ومن المَشْغُوفين به ، وقد أفاض في كتبه بذكره ، والثناءِ عليه ، والاقتباس من علومه ومعارفه ، وكاد يَستوعب علمه ، وقد أشار إلى عُزُوبتِه ، وتفرُّغِهِ وتفرُّدِه ـ بخُلُوِّه من الزوجةِ والوَلَد ـ للعلمِ والتأليف ، وتأصيلِ القواعد وتأسيسِها في مواضع من كتبه .

قال في كتابه « الخصائص » ١ : ٢٧٧ ، وهو يَتحدث عن قُوَّة أبي علي في معرفة القياس في اللغة ، ومتانتِهِ به تقعيداً وتأصيلاً : « أقام على هذه

الطريقة سبعين سنة ، زائحةً عِلَلُه ، ساقطةً عنه كُلَفُه ، وجعَلَه هَمَّهُ وسَدَمَه ـ يعني : مَقْصِدَه ـ ، لا يَعتاقُهُ عنه ولد ».

وأشار ابنُ جني أيضاً إلى عُزوبتِه في مقدمة كتابه « المحتسِب » ، فقال وهـو يُشيد به ، ويُبيِّنُ سبَبَ سموِّ علمه وغزارةِ معارفه : « . . . بخُلُوِّ سِرْبِه ، وسُروحِ فِكره ، وفُرودِهِ بنفسِه » . انتهى . رحمة الله تعالى عليه .

ومصادر هذه الترجمة « وفيات الأعيان » لابن خلكان ١ : ١٣١ ، و« الأعلام » للزركلي ٢ : ١٩٣ ، ومقدمة كتابه « الحجة » بتحقيق الأساتذة : علي النجدي ، والدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور عبد الفتاح شلبي ، ومراجعة الأستاذ محمد علي النجار[١] .

---

(١) ومما ينبغي التنبيه عليه ما وقع لهؤلاء الكبار الأفاضل ، من تحرَيف في كنية الشيخ الإمام أبي اليُمْنِ الكِنْدي (زيد بن الحسن) المتوفى سنة ٦١٣ ، الذي سُمِعَ عليه كتاب « الحُجَّة » من النسخة المخطوطة التي اعتمدوا عليها في الطبع ، فقد وقعَتْ كنيتُهُ في السماع الذي في المخطوطة ـ على ما أثبتوه ـ في ص ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ من مقدمتهم هكذا : « . . . وكتب زيدُ بن الحسن بن زيد الكندي أبو اليمين في ذي الحجة من سنة ست وست مئة » . انتهى .

وجاء لفظ (أبو اليمين) بعدَ هذا في تمام السماع الذي نقلوه وفي كلام المحققين أنفسهم مكرَّراً خمسَ مرَّات : (أبو اليمين) بياء بعد الميم !! وهو تحريف بيِّن ، أثبتوه مطمئنِّين ، ومشَوْا عليه مُقِرِّين ، وزادوا في الإقرار للتحريف إيغالاً ! فعلَّقوا في ص ٣٩ على (أبي اليمين زيد بن الحسن بن زيد الكندي) قولَهم : « ترجمتُهُ في طبقات القراء ١ : ٢٩٧ ، وبُغية الوعاة ٣٤٩ » . فأوهم ذكرُهم هذين المصدرين لترجمتِهِ أنه كذلك هو فيها ! وليس كذلك ، بل هو أبو اليُمْنِ بضم الياء وسكون الميم بعدها ، فاعرِفْه .

٩ ـ وَمِنَ العُلَمَاءِ العُزَّاب[٧]

إمامُ الحديث والمحدثين في عصره أبو نصر السِّجْزِي ، الذي ترجم له الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ١١١٨ ، فقال :

« أبو نصر السِّجْزي ، الحافظُ الإمامُ ، عَلَمُ السُّنَّة ، عُبَيْدُ الله بن سعيد ابن حاتم بن أحمد الوائلي البكري ، نزيلُ الحَرَمِ ومصر ، وصاحبُ « الإبانة الكبرى » في مسألة القرآن ، وهو كتاب طويل في معناه ، دالٌّ على إمامةِ الرجل وبصرِه بالرجال والطُّرُق .

حدَّث عن أحمد بن فِراس العَبْقَسِيّ ، وأبي عبد الله الحاكم ، وأبي أحمد الفرضي ، وحمزة المُهَلَّبي ، ومحمد بن محمد بن محمد بن بكر الهَزَّاني ، وأبي عمر بن مهدي ، وعلي بن عبد الرحيم السُّوسي ، وأبي الحسين أحمد بن محمد المجبر ، وأبي محمد بن النحاس ، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي ، وعبد الصمد بن زهير بن أبي جَرَادة الحلبي صاحبِ ابن الأعرابي ، وهذه الطبقة .

وكانت رحلتُه بعد الأربع مئة ، فسَمِعَ بخراسان والحجازِ والشام والعراقِ ومصر . حدَّث عنه أبو إسحاق الحبَّال ، وسهلُ بن بشر الإسفراييني ، وأبو معشر المقرىء الطبري ، وإسماعيل بن الحسن العلوي ،

وأحمد بن عبد القادر اليوسفي ، وجعفر بن يحيى الحَكَّاك ، وجعفر بن أحمد السراج ، وخلقٌ سواهم . وهو راوي الحديث المسلسل بالأوَّليَّة .

قال ابنُ طاهر المقدسي : سألتُ الحافظ أبا إسحاق الحبَّال عن أبي نصر السِّجْزِي والصُّوْري ـ أبي عبد الله محمد بن علي السَّاحِلي الصُّوري الحافظ العلاَّمة الأوحد ـ أيُّهما أحفظ ؟ فقال : كان السِّجْزيُّ أحفظَ من خمسين من مِثلِ الصُّوري .

ثم قال الحبَّال : كنتُ يوماً عند أبي نصر السجزي ، فدُقَّ الباب ، فقمتُ ففتحتُه ، فدخلَتْ امرأةٌ وأخرجَتْ كِيساً فيه ألفُ دينار ، فوضعَتْه بين يدي الشيخ ، وقالت : أنفِقْها كما تَرى ، قال : ما المقصود ؟ قالت : تَتزوَّجُني ، ولا حاجَةَ لي في الزواج ولكن لأخدمَك ، فأمَرَها بأخذِ الكيس وأن تنصرف .

فلما انصرفَتْ قال : خَرجتُ من سِجِسْتان بنيَّةِ طلب العلم ، ومتى تزوَّجتُ سَقَط عني هذا الاسم ، وما أُوثرُ على ثوابِ طلبِ العلم شيئاً . مات بمكة سنة أربع وأربعين وأربع مئة رحمه الله تعالى » .

١٠ - وَمِنَ العُلَماء العُزّاب

الحافظُ الفقيهُ الزاهد أبو سَعْد السمَّان الرازي ، البصري ، المولود سنة ٣٧١ ، والمتوفى سنة ٤٤٥ ، رحمه الله تعالى ، أحَدُ المحدِّثين النسَّابين ، والفقهاءِ الفَرَضيين ، والقُرَّاء المفسِّرين ، والأفذاد المُتْقِنين ، طاف الدنيا من مشرقها إلى مغربها ، وشاهَدَ الرجال والشيوخ ، وتوفي عن ٧٤ سنة عَزَباً قريرَ العين بالعلم وما ألَّفه فيه .

قال الحافظ عبد القادر القرشي في « الجواهر المضية في طبقات الحنفية »١ : ١٥٦ ، في ترجمته « أبو سعد السمان إسماعيل بن علي بن الحسين بن زَنْجُويَه الرازي ، الحافظ الزاهد المعتزليُّ ، شيخُ العَدْلِيَّة - أي المعتزلة - وعالِمُهم وفقيههم ومتكلمهم ومحدِّثهم ، وكان إماماً - بلا مدافعة - في القراءات والحديث ومعرفة الرجال والأنساب والفرائض والحساب والشروط والمقدَّرات .

وكان إماماً أيضاً في فقه أبي حنيفة رضي الله عنه وأصحابه ، وفي معرفة الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما ، وفي فقه الزيدية ، وفي الكلام ، وكان يَذهب مذهبَ أبي الحَسَن البصري - قال عبد الفتاح : كذا ، ولم أعرفه بعد - ومذهبَ الشيخ أبي هاشم .

وكان قد حَجَّ وزار قبرَ النبي ﷺ ، ودخل العراق وطاف الشام والحجاز وبلاد المغرب ، وشاهَدَ الرجال والشيوخ ، وقرأ على ثلاثةِ آلافِ رجلٍ من شيوخ زمانه[1] . قال أبو الحسن المطهَّرُ بنُ علي المرتَضَى : سمعتُ أبا سعد

---

(١) وترجم له الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ١١٢١ ، وقال في ترجمته : « وقال أبو القاسم بن عساكر : سألتُ أبا منصور بن عبد الرحيم بن المظفر بالرَّيّ ، عن أبي سَعْد السمَّان ، فقال : كان عَدْليَّ المذهب ، يعني معتزلياً ، وقال : كان له ثلاثةُ آلاف وسِتُّ مِئةِ شيخ . قلتُ ـ القائلُ الذهبي ـ : هذا العدَدُ لشيوخه ، لا أعتقِدُ وجودَه ولا يُمكِن » . انتهى كلامُ الذهبي .

قال عبد الفتاح : استبعادُ الذهبي لهذا العَدَدِ من الشيوخ ، يُعارِضُه إقرارُه لنحوِ هذا العدد في ترجمة الحافظ الإمام ابن النجار (محمد بن محمود) في « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١٤٢٩ ، ففيها : « قال ابن الساعي : كانت رِحْلةُ ابن النجار سبعاً وعشرين سنة ، واشْتملَتْ مَشْيَخَتُه على ثلاثةِ آلاف شيخ » .

ويُعارِضُه أيضاً إقرارُه لِضِعفِ هذا العَدَدِ في ترجمة الإمام أبي سَعْد السَّمْعاني (عبد الكريم بن محمد) ، في « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١٣١٦ ، قال فيها : « قال ابنُ النجار : سمعتُ من يَذكُرُ أن عدَدَ شيوخِهِ سبعةُ آلافِ شيخ ، وهذا شيء لم يَبلغه أحد » . انتهى . وقد أقرَّه الحافظ الذهبيُّ ولم يُعقِّب عليه بشيء ، وكان هذا أحقَّ بالتعقيبِ عليه من التعقيب على شيوخ أبي سعد السَّمان لو سُلِّمَ التعقيب .

وقد ذكر الحافظُ ابنُ حجر في «لسان الميزان » ١ : ٤٢٢ ، في ترجمة أبي سعد السمان (إسماعيل بن علي) المترجم له هنا : عدَدَ شيوخِه كما ذكره الذهبي وأقرَّه ، وكذلك أقرَّه مِن قَبْلِهما الحافظُ أبو القاسم بن عساكر الذي رواه الذهبيُّ من طريقه ، وكذلك نقَلَه الحافظ الداودي في « طبقات المفسرين » ١ : ١١٠ ، وأقرَّه أيضاً .

وقال الحافظ العراقي في « شرح ألفيته » ٢ : ٢٣٣ ، في شرح أبيات (آداب طالب الحديث) : « وقد وُصِفَ بالإكثار من الشيوخ : سفيان الثوري ، وأبو داود الطيالسي ، ويونس بن محمد المؤدِّب ، ومحمد بن يونس الكُدَيْمي ، وأبو عبد الله بن منده ، والقاسم بن داود البغدادي ، روينا عنه قال : كتبتُ عن سِتَّةِ آلافِ شيخ » . انتهى . وهذا من الحافظ العراقي يُفِيدُ قبولَه وإقرارَه لما ذُكِرَ من عدد شيوخ أبي سعد السمَّان ، فقد أقرَّ ما رواه من عدد شيوخ القاسم بن داود ، وهو ضِعفُ شيوخ السمَّان .

وقال العلامة عبد الرحمن المُعلِّمي رحمه الله تعالى ، في مقدمته لكتاب « الأنساب » لأبي سعد السَّمْعاني ١ : ٢١ ، وهو يتحدث عن عَدَدِ شيوخه : « ذكر ابن خلكان وغيرُه أنَّ =

السَّمان يقول : من لم يَكتُب الحديثَ ، لم يَتَغرْغَر بحلاوةِ الإسلام .

وكان يقال في مدحه : إنه ما شاهَدَ مِثلَ نفسِه ، وكان مع هذه الخصال الحميدة زاهداً ورِعاً قوَّاماً ، مجتهِداً صوَّاماً ، قانعاً راضِياً ، أتَى عليه أربعُ

=عدَدَ شيوخ أبي سَعْد يزيد على أربعةِ آلاف ، وقال ابنُ النجار : سمعتُ من يَذكر أن عدَدَ شيوخه سبعةُ آلاف شيخ » . قال المعلِّمي عَقِبَه : « وهذا غيرُ بعيد إذاعَدَدْناكلَّ من حَكى عنه أبو سعدٍ حكايةً شيخاً له » . انتهى .

قال عبد الفتاح : وهو كذلك ، وهذا هو المَعْنيُّ من كلامهم حينما يذكرون كثرةَ الشيوخ ، فهم يَقصِدون بهم شيوخَ التلقِّي ، لا شيوخَ الدراسة والمُثافَنَةِ بالرُكَب .

ولا شك أنَّ الرحلة في زمن الحافظ الذهبي الذي توفي سنة ٧٤٨ ، قد ضاق نِطاقُها ، وقلَّ أهلُوها وتقلَّصَتْ آفاقُها ، فالظاهر أن الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى قاسَ ذلك الخبر ، على مشهودِه من النظر ، وإلا لو رَجَع بذاكرتِهِ إلى أهلِ القرون المتقدمة عليه ، لرأى الشواهد تِلْوَ الشواهِدِ تَشهدُ لما ذكروه ، وتُثبِتُ ما قالوه .

فقد نَقَل هو في كتابه « تذكرة الحفاظ » ١ : ٣٩٤ ، في ترجمة الحافظ المسند (مسلم بن إبراهيم الفَراهيدي البصري) ، المتوفى سنة ٢٢٢ ، ما يلي : « وقال أبو إسماعيل الترمذي ـ هو الحافظ محمد بن إسماعيل شيخ أبي عيسى الترمذي صاحِبِ « الجامع » ـ : سمعتُه يقول : كتبتُ عن ثمانِ مِئةِ شيخ ، ما جُزْتُ الجِسْر » . انتهى .

وقال الخزرجي في « الخلاصة » في ترجمته : « وكتَبَ عن سبعين امرأةً » . انتهى .

فاذا كان هذا الذي لم يَخرج من بلده الصغير (البصرة) ، قد كتَبَ عن ثماني مِئةِ شيخ ، وقد يكون منهم السبعون شيخةً أو يَزِدْنَ عليهم ، وهو الظاهر ، لقول تلميذه الإمام أبي داود صاحب « السنن » : « كتَبَ مسلم بن إبراهيم عن قريبٍ من ألفِ شيخ ، ما رَحَل إلى أحد » . كما في « تهذيب التهذيب » ١٠ : ١٢٢ ، فكيف بالذي طوَّف آفاقَ الدنيا من مشرقِها إلى مغربِها ، وعاش على ذلك ٧٤ عاماً ، فلا يُستبعَدُ أن يكون له من الشيوخ ٣٦٠٠ شيخ ، والله تعالى أعلم .

بل هو ممكن وواقع ، ولا غرابة في ذلك أبداً ، فهذا شيخ الذهبي ورفيقُه وصاحبُه ، المتأخِّرُ الزمانِ عن أبي سَعْد السمَّان ، الإمامُ الحافظُ عَلَمُ الدين أبو محمد القاسمُ بن محمد البِرْزَاليُّ ، المولود سنة ٦٦٥ ، والمتوفى سنة ٧٣٩ رحمه الله تعالى ، قد كان له ثلاثةُ آلاف شيخ ، ودَوَّنَ البِرْزاليُّ أسماءَهم في « معجم شيوخه » ، كماذكَرَ ذلك الذهبيُّ نفسُه في كتابه « معجم الشيوخ » ومَدَحَ كتابَ « معجم الشيوخ » للبِرْزالي بقوله :

وسبعون سنة ولم يُدخِل إصبَعه في قَصْعَةِ إنسان[١] ، ولم يكن لأحدٍ عليه مِنَّةٌ ولا يَدٌ في حضَرِهِ ولا سفره .

مات ولم يكن له مَظْلَمة ، ولا تبِعةٌ من مال ولا لِسان ، كانت أوقاتُه موقوفةً على قراءة القرآن والتدريس والرواية والإرشاد والهداية والعِبادة ، خلَّف ما جَمَعه من الكتب طُولَ عمره وَقْفاً على المسلمين . كان تاريخَ الزمان ، وشيخَ الإسلام ، وبقيةَ السَّلَفِ والخَلَف .

مات ولا فاتَهُ في مرضه فَرْضٌ ولا واجبٌ من طاعة الله تعالى من صلاةٍ وغيرِها ، ولا سال منه لُعاب ، ولا تلوَّثَ له ثياب ، ولا تغيَّر لونُه ، وكان يُجدِّدُ التوبة ، ويُكثِرُ الاستغفار ، ويَقرأ القرآن . وصنَّف كتباً كثيرة ، ولم يتأهَّل قط ، ومَضَى لسبيله وهو يَبتسمُ كالغائب يَقدَمُ على أهله ، وكالمملوكِ المُطيع يَرجِعُ إلى مالكِه .

مات بالرَّيّ ليلة الرابع والعشرين من شعبان سنة ٤٤٥ ، ودُفن بجبل طَبَرَك ، بقرب الفقيه الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمهما الله تعالى » .

إن رُمتَ تفتيشَ الخزائنِ كلِّها وظُهُورَ أجزاءٍ حَوَتْ وعَوالي
ونُعُوتَ أشياخِ الوجودِ وما رَوَوْا طالِعْ أو اسْمَعْ مُعجمَ البِرْزالي

نَقَل ذلك الدكتور بشار عوَّاد معروف ، في تقديمه لكتاب « سِيَر أعلام النبلاء » للحافظ الذهبي ، ص ٣٦ .

والحقُّ يقال : إنَّ الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى ، ذكَرَ مِثلَ هذا العددِ أو نحوَه من كثرة الشيوخ ، في تراجم كثيرٍ ممن تَرجَم لهم في « تذكرة الحفاظ » ، ولم يُعقِّب عليه أو يَنْقُده بشيء كما رأيتَ مِثالَيْنِ منه ، فلعلَّ الذي دعاه إلى النقد هنا شِدةُ كراهتِه للمعتزلة ، وأبو سعد السمَّان شيخُ المعتزلة كما تقدم ، فهذا من هذا ، والله أعلم .

(١) استفدتُ من هذا النص : (أتى عليه أربعٌ وسبعون سنة ولم يُدخِل . . .) تحديدَ سنةِ ولادتِه ، وفات العلامةَ الزركليَّ رحمه الله تعالى في « الأعلام » الاستفادةُ منه ، فلم يَذكر تاريخَ ولادتِه !

١١ - وَمِنَ العُلَمَاءِ العُزّاب

الحافظ الأنماطي أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد البغدادي ، قال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٤ :١٢٨٢ ، في ترجمته : « الحافظُ العالِمُ محدِّثُ بغداد ، ولد سنة ٤٦٢ ، ومات سنة ٥٣٨ ، عن ٧٦ سنة .

سَمِعَ أبا محمد بن هَزَارْ مُرْد الصَّرِيفِيْني ، وأبا الحسين بن النَّقُّور ، وأبا القاسم عبد العزيز بن علي الأنماطي ، وعلي بن أحمد البُنْدار ، فمن بعدَهم . وكَتَب الكتب ، وسَمِعَ العاليَ والنازلَ حتى أَنزَف على ابنِ الطُّيوريِّ ـ المبارَكِ بن عبد الجبار ـ جميعَ ما عنده .

رَوَى عنه ابنُ ناصر ، والسِّلَفِي ، وابنُ عساكر ، وأبو موسى المَدِيني ، وأبو سَعْد السمعاني ، وأبو الفرج بن الجوزي ، وأبو أحمد بن سَكِينة ، وعبد العزيز بن الأخضر ، وأحمد بن أزهر ، وعبد العزيز بن مَنِينا ، وأحمد بن الدُّبَيقي ، وعبد الوهاب بن أحمد بن هُدْبة خاتمةُ أصحابه .

قال السمعاني : هو حافظ ثقة متقِن واسعُ الرواية ، دائمُ البِشْر ، سريعُ الدمعةِ عند الذكر ، حسَنُ المعاشرة . جَمَعَ الفوائد وخرَّج التخاريج ، لعله ما بَقِيَ جزءٌ مَرْوِيٌّ إلا وقد قرأه وحَصَّل نُسختَه ، ونَسَخ الكتبَ الكبارَ ، مثل

« الطبقات » لابـن سعد ، و« تاريخ الخطيب » ، وكان متفرغاً للحديث ، إمَّا أن يُقرأ عليه أو يَنسخَ شيئاً ، وكان لا يُجوِّز الإجازةَ على الإجازة ، وصَنَّف في ذلك . قرأتُ عليه « الجَعْدِيَّات » ، و« مسندَ يعقوب الفَسَوي » ، والذي عنده من « مسند يعقوب السَّدُوسي » ، و« انتقاءَ البَقَّال » على المُخَلِّص .

قال السِّلَفِي : كان عبدُ الوهاب رفيقُنا : حافظاً ثقةً ، لديه معرفة جيدة . قال ابنُ ناصر : كان بقيَّةَ الشيوخ ، سَمِعَ الكثير ، وكان يَفهم ، ثقةً ، مَضَى مستوراً ،ولم يتزوَّج قط . وقال ابن الجوزي : كنتُ أقرأُ عليه وهو يبكي ! فاستَفدتُ ببكائه أكثرَ من استفادتي بِروايته ، وكان على طريقة السلف ، انتفعتُ به ما لم أنتفع بغيره ، رحمه الله تعالى » .

١٢ - ومن العلماء العزّاب[٧]

الإمامُ أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخُوَارَزْميُّ ، الملقَّبُ : فَخْرَ خُوارَزْم ، وجارَ الله ، لمجاورته بمكة المشرَّفة زماناً ، ولد في ٢٧ من رجب سنة ٤٦٧ بزمخشر : قريةٍ من قرى خُوَارزم ، وتوفي ليلةَ عَرَفة سنة ٥٣٨ بجُرْجانيَّة خُوارزم ، عن ٧١ سنة رحمه الله تعالى .

جاء في ترجمته في « نزهة الألباء » لابن الأنباري ص ٣٩١ - ٣٩٣ ، و« معجم الأدباء » لياقوت الحموي ١٩ : ١٢٦ - ١٣٥ ، و« إنباه الرواة » للقِفطي ٣ : ٢٦٥ - ٢٧٢ ، و« الوفيات » لابن خلكان ٢ : ٨١ - ٨٢ و« لسان الميزان » لابن حجر ٦ : ٤ ، و« طبقات المفسرين » للسيوطي ص ١٢٠ - ١٢١ ، و« الزمخشري » للدكتور أحمد الحَوْفي ما يلي :

لقي في بلاده وغيرها : الأكابرَ والأفاضل ، ودَخَل خراسان ، ووَرَد بغداد غيرَ مرة ، والتقى بكبار علمائها في ذاك العصر الذي كانت فيه بغداد غَنِيةً بالعلماء الكبار والأئمة المشهورين .

أَخَذَ اللغة والنحوَ والأدبَ في خوارزم عن شيخه أبي مُضَرَ محمود بن جرير الضَّبِّيّ الأصبهاني ، ثم الخوارزمي ، الذي كان يُلقَّبُ : فريدَ العصر ، وكان وحيدَ دهرِهِ وأوانِه في علم اللغة والنحو والأدب والطِّبّ ، ويُضرَبُ به

المَثَلُ في أنواع الفضائل ، وقد أقام في خوارزم مُدَّةً ، وانتفع الناسُ بعلومه ومكارم أخلاقه ، وأخذوا عنه علماً كثيراً ، وتخـرَّج به جماعة من الأكابر في اللغة والنحو والأدب ، منهم الزمخشري .

وأبو مُضَر هذا هو الذي أدخل على خوارزم مذهبَ المعتزلة ، ونشَرَه بها ، فاجتمع عليه الخلقُ لجلالته ، وتمذهبوا بمذهبه ، ومنهم أبو القاسم الزمخشري تلميذُه المتعلِّقُ به .

وقد توسَّم أبو مُضَرَ في تلميذه الذكاءَ والجِدَّ ، والجـدارة بأن يَخلُفَه ، فتعهَّده بعلمه ، ورعاه بماله ، يَدُلُّ على هذا قولُ الزمخشري لِنظام المُلْك :

إليك نِظامَ المُلْكِ شكوايَ فاستمِعْ إلى بَثّ مجذوذِ المعايِشِ ضَنْكِها
ولو لم يلِ الضَّبِّيُّ عنِّي عِـراكَها لنـالَتْ يدُ البَلْوَى أَدِيمي بعَـرْكِها

وكان الزمخشري محباً لأستاذه أبي مُضَر ، وفِيًّاً له ، فلما مات سنة ٥٠٧ ، رثاه بقوله :

فقلتُ لطبعي : هاتِ كلَّ ذخيرةٍ فمِن أجلِهِ ما زِلتُ أدَّخِرُ الذُّخْرا
وأبْـرِزْ كريمـاتِ القوافي وغُـرَّهـا فمنه استفدنا العلمَ والنظمَ والنَّثْرا

ورثاه أيضاً بقوله ، وهو من كريم الشعر :

وقـائلةٍ : مـا هــذه الـدُّرَرُ التي تَسَاقَطُ من عينيكَ سِمْطَينِ سِمْطَينِ ؟
فقلتُ: هو الدُّرُّ الذي كان قد حَشَا أبو مُضَرٍ أُذْنِي تَساقَط من عَيْنِي !

وأخَذَ الزمخشريُّ الأدبَ أيضاً عن أبي الحسن علي بن المظفَّر النيسابوري(١) ، وسَمِعَ الحديث ببغداد من شيخ الإسلام أبي منصور نصرٍ

(١) هكذا هو في « معجم الأدباء » ١٩ : ١٢٧ ، في ترجمة الزمخشري ، وخطَّأه =

الحارثي ، ومن أبي سَعْد الشَّقَّاني النيسابوري، ومن المحدِّث أبي الخَطَّاب نصر بن أحمد بن عبد الله بن البَطِر ، المتوفى سنة ٤٩٤ (١) .

= الدكتور أحمد محمد الحوفي في كتابه « الزمخشري » ص ٥٠ ورأى أن الصواب فيه : (أبو علي الحسن بن المظفَّر الأصبهاني) ، استناداً منه إلى ما جاء في « معجم الأدباء » نفسِه ٩ : ١٩١ . قال الدكتور الحوفي : « وهو شيخ الزمخشري قبل أبي مضر . . . » . انتهى .

وقد سها الدكتور الحوفي في هذا ، وغَفَل غفلةً فاحشة ! ففي « معجم الأدباء » ٩ : ١٩١ ، في ترجمة (أبي علي الحسن بن المظفَّر النيسابوري) ما يلي : « مات في الرابع من شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وأربع مئة » . انتهى . والزمخشـريُّ ولد سنة ٤٦٧ ، أي بعد وفاة ابن المظفَّر المذكور بخمس وعشرين سنة ، فكيف يأخذُ عنه ويكون ابنُ المظفَّر شيخَه وقد مضى على وفاته ٢٥ سنة قبل ولادة الزمخشري ؟ !

نعم قد وقع في ترجمة ابن المظفر المذكورة ما يلي : « كان مؤدب أهلِ خوارزم في عصره ، ومخرِّجَهم ، وشاعِرَهم ، ومقدَّمَهم ، والمشارَ إليه منهم ، وهو شيخُ أبي القاسم الزمخشري قبل أبي مُضَر » انتهى .

ولكن كيف يستقيم هذا ؟ ووفاةُ ابن المظفَّر المذكور محدَّدةٌ بسنة ٤٤٢ في رمضان ؟! ويُعزِّزُ صحةَ هذا التأريخ لسنة وفاة ابن المظفر ، أنه مَدَح الشيخَ الرئيسَ أبا علي ابنَ سينا ، وكتَبَ إليه رُقعةً ، كما في ترجمته في « معجم الأدباء » ٩ : ١٩٣ ، وابنُ سينا توفي سنة ٤٢٨ ، فكيف يتفق هذا لابن المظفر مع تلمذةِ الزمخشري عليه ؟ فلعل جملة (وهو شيخُ أبي القاسم الزمخشري) مقحمة من بعض الواقفين على الكتاب خطأً وسهواً ، والله أعلم .

(١) ضبطه بالبَطِر ككتِف صاحبُ القاموس في (بطر) ، وترجَمَ له شارحُه الزبيدي في « تاج العروس » ٣ : ٥٢ ، وذكر أن ولادته سنة ٣٩٨ ، وأنه توفي في ١٦ ربيع الأول سنة ٤٩٤ .

ووقع في كتاب « الزمخشري » للدكتور الحوفي ص ٤٩ قولُه : « وسَمِعَ الزمخشريُّ من أبي الخطاب بن أبي البطر . كما في « طبقات المفسرين » للسيوطي ص ٤١ ، ولم أعثر له على ترجمة في كتب التراجم والطبقات » . انتهى كلام الحوفي . وفيه : تحريفٌ في نسب أبي الخطاب ، فهو (ابنُ البَطِر) بدون إقحام (أبي) ، كما في « طبقات المفسرين » و« التاج » ، وفيه : أن الزبيدي ترجم له في « تاج العروس » ، ووصفه بالقارىء المحدث ، وأرَّخ لولادته ووفاته ، ولأخيه أبي الفضل محمد بن أحمد .

ولقي في بغداد أيضاً الإمامَ الفقيهَ أباالحسين أحمد بن علي الدامَغانيَّ الحفيدَ ، المتوفى سنة ٥٤٠[١] .

قال الإمام أبو اليُمْن زيد بن الحسن الكِنْدي البغدادي ثم الدمشقي ، النَّحْوي الأديب : كان الزمخشريُّ أعلمَ فضلاء العجم بالعربية في زمانه ، وأكثَرهم اكتساباً واطلاعاً على كتبها ، وبه خُتِم فضلاؤ هم ، قَدِمَ علينا بغداد سنة ٥٣٣[٢] ، ورأيتُه عند شيخنا أبي منصور الجَوَاليقي مرتين ، قارئاً عليه

---

(١) كما قاله الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، في تعليقه على « إنباه الرواة » للقفطي ٣ : ٢٦٨ ، وللدامغاني هذا ترجمة في كتاب « الجواهر المضية في طبقات الحنفية » للقرشي ١ : ٨٣ .

ووقع من الدكتور الحوفي قولُه في كتابه « الزمخشري » ص ٥٠ « الدامغاني هو قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي الدامغاني ، ولي قضاء بغداد مدة ، وكان إليه القضاء والرياسة والتقدم ، وكان فقيهاً فاضلاً ، توفي ببغداد سنة ٤٩٨ كما في الأنساب للسمعاني » . انتهى قول الحوفي .

وفيه تحريف ثم خطأ فاحش ! أما التحريف فتأريخ وفاته للدامغاني هذا سنة ٤٩٨ ، وصوابه سنة ٤٧٨ كما في « الأنساب » للسمعاني ٥ : ٢٩٠ و « الجواهر المضية» للقرشي ٢ : ٩٧ . وأما الخطأ الفاحش فهو أن الدامغاني هذا ولد سنة ٣٩٨ ، ومات سنة ٤٧٨ ، فيستبعد أن يأخذ الزمخشريُّ عنه ، لأنه عند وفاة هذا الدامغاني كانت سِنُّ الزمخشري إحدى عشرة سنة ، وكان آنذاك طفلاً في بلده خوارزم لم يبارحها . فالدامَغاني الذي أخَذَ الزمخشريُّ عنه هو المذكور أعلاه .

(٢) وقع من الدكتور الحوفي في كتابه « الزمخشري » ص ٥٠ قولُه : « وقال القفطي في « إنباه الرواة » ٣ : ٢٧٠ إنَّ الزمخشري قَدِمَ علينا ببغدادَ سنة ٥٣٣ ، ورأيتُه عند شيخنا أبي منصور الجواليقي قارئاً عليه بعضَ كتبه من فواتحها ، ومستجيزاً لها » . انتهى كلام الدكتور الحوفي .

وفيه خطأ فاحش جداً ، فان القفطي ولد سنة ٥٦٨ ، وتوفي سنة ٦٤٦ ، فكيف يَحضُرُ مجلسَ من كان موجوداً سنة ٥٣٣ ؟ !

وسبَبُ هذا الخطأ الفاحش متابعةُ الدكتور الحوفي لخطأ الأستاذ الفاضل محمد أبو الفضل إبراهيم ، محقِّق كتاب « إنباه الرواة » للقفطي ، فقد أثبَتَ هناك في حكاية لقاء الزمخشري بالجواليقي لفظَ (قلتُ) ، فعاد الكلامُ للقفطي ، والصواب أن يُثبِتَ هناك لفظَ =

بعضَ كتب اللغة من فواتحها ، ومستجيزاً لها ، لأنه لم يكن له ـ على ما عنده من العلم ـ لقاء ولا رواية . نقله القاضي ابنُ خَلِّكان في « وفَيات الأعيان » ١ : ١٩٦ ، في ترجمة أبي اليمن الكِنْدي المذكور[1] .

قال أبو البركات ابن الأنباري في « نزهة الألباء » ص ٣٩٣ ، في ترجمة الزمخشري : « وقَدِمَ إلى بغداد للحج ، فجاءه شيخُنا الشريفُ ابنُ الشَّجَري مهنئاً له بقدومه ، فلمَّا جالسه أنشده الشريف فقال :

كانت مُساءَلَةُ الرُّكْبان تُخْبِرُني ... عن أحمدَ بنِ دُوَادٍ أطيبَ الخبرِ
حتى التقينا فلا واللَّهِ ما سَمِعَتْ ... أُذْني بأحسَنَ مما قد رأى بَصَرِي[2]

وأنشده أيضاً :

وأستكبِرُ الأخبارَ قبلَ لقائِهِ ... فلمَّا التقينا صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ[3]

وأثنى عليه ، ولم يَنطِق الزمخشريُّ حتى فرَغ الشريفُ من كلامه .

فلما فَرَغ شكَر الشريفَ وعظَّمه وتصاغَرَ له ، وقال : إنَّ زيدَ الخيل ،

= (قال) ، كما جاء في نسخة (ب) ، ليعود الكلام إلى أبي اليُمن الكندي كما نقلتُه آنفاً عن ابن خلكان ، فخطأُ الأستاذ محمد أبو الفضل : أوقَعَ الدكتور الحوفي في الخطأ متابعةً ! فتنبَّه له .

(١) وكانت سِنُّ الزمخشري آنذاك ٦٦ سنة ، فكان إماماً ملأتْ شهرتُه آفاقَ الدنيا ، وكَثُر تلامذتُه والآخذون عنه أيَّما كثرة ، ومع هذا لم يأنف أن يجلس بين يدي الإمام الجواليقي في بغداد جِلسةَ الطالب المستفيد المستزيد ، وهكذا يتبدَّى من هذا الخبر: احتراقُ الزمخشري بالعلم وتحصيلِه والاستزادةِ منه عن أهلِه الكبار ، ولو كان هو كبيراً مثلَهم أو أشهرَ منهم .

(٢) انظر ما قاله القاضي ابن خلكان حول هذين البيتين ، في « وفيات الأعيان » ١ : ١١٣ ، في ترجمة (أبي علي جعفر بن فلاح الكتامي) .

(٣) البيت للمتنبي في « ديوانه » ٢ : ١٥٥ .

دَخَل على رسول الله ﷺ ، فحين بَصُرَ بالنبيّ رَفَع صوتَه بالشهادة ، فقال له الرسول ﷺ : يا زيدَ الخيل ، كلُّ رجلٍ وُصِفَ لي وجدتُه دون الصِّفَة ، إلا أنت فإنك فوق ماوُصِفْتَ .

وكذلك الشريفُ ، ودَعا له وأثنى عليه. فتعجَّبَ الحاضرون من كلامهما ، لأن الخبرَ كان أليقَ بالشريف ، والشعرَ أليقَ بالزمخشري .

وقال الأديب المَقَّريُّ في « أزهار الرياض في أخبار عياض » ٣ : ٧٧ « وذكر الشيخ أبو حيان ـ الأندلسي ـ في باب القَسَم ، أن الزمخشري رَحَل من خوارزم إلى مكة قبل العشرين والخمسِ مئة ، لقراءة « كتاب سيبويه » على رجل من أصحابنا من أهل الأندلس ، يُعرَف بأبي بكر عبد الله بن طلحة اليَابِرِي الإشبيلي الأندلسي ، وكان مجاوراً بمكة ، عالماً بـ « الكتابِ » وغيرِه ، وله تصانيفُ تُقرأ عليه .

قال الوانشريشي : وكان اليَابِرِيُّ من أهل المعرفة بالفقه وأصوله ، ماهراً في النحو ، حافظاً للتفسير ، قائماً عليه ، وله مصنفات في التفسير وفي الفقه وأصوله ، واستَوطنَ مصر وقتاً ، ثم رحل إلى مكة فجاور فيها ، إلى أن تُوفِّي بها رحمه الله تعالى ، وكان حيّاً سنة ٥١٦ ، وكانت له معرفة تامة بكتاب سيبويه ، وبسببه ارتحل إليه الزمخشريُّ من خوارزم لقراءته عليه » . انتهى .

وقد أقام الزمخشري بخوارزم تُضرَبُ إليه أكبادُ الإبِل ، وتُحَطُّ بفِنائه رِحالُ الرجال ، وتُحدَى باسمِه مطايا الآمال ، وقرأ عليه واستجازه غيرُ واحد من العلماء ، وممن استجازه الحافظُ السِّلَفِي ، فأجازه الزمخشري إجازة تدل على كمال تواضعه ، وسُمُوِّ نُبلِه مع العلماء الفضلاء ، وانظر الاستجازة الأولى والثانية منه ، ثم الإجازة من الزمخشري له ، في « أزهار الرياض » ٣ : ٢٨٣ ـ ٢٩٣ ، ففيها فنون من الآداب والمعارف .

قال القِفطي في « إنباه الرواة » ٣ : ٢٦٥ ـ ٢٦٦ ، في ترجمة الزمخشري : « وكان ممن يُضرَبُ به المَثَلُ في علم الأدب والنحو واللغة ، وصنَّف التصانيف في التفسير ، وغريب الحديث ، والنحو ، وغيرِ ذلك . ودَخَل خراسان ، ووَرَد العراق ، وما دخل بلداً إلا اجتمعوا عليه ، وتَلْمَذُوا له ، واستفادوا منه ، وكان علاَّمةَ الأدب ، ونسَّابَةَ العَرَب ـ لا تَنْسَ أنه عَجَميّ ـ ، أقام بخوارزم ، ثم خرج منها إلى الحج ، وأقام برهة من الزمان بالحجاز ، حتى هبَّتْ على كلامه رياحُ البادية ، ووَرَد مناهلَ العَرَب العارِبَة ، ثم انكفأ راجعاً إلى خوارزم » .

وكان إماماً في التفسير ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، والبيان ، واسعَ العلم ، كثير الفضل ، غايةً في الذكاء ، وجودة القريحة ، متفنناً في علوم شتى ، حنفيَّ المذهب ، معتزلياً مجاهراً بذلك ، وكان إذا قَصَد صاحباً له ، واستأذَنَ عليه في الدخولِ يقول له : أبو القاسم المعتزلي بالباب .

وله إنشاء رفيع ، وسَجْع بديع ، فانظر من كتبه : « أطواق الذهب » ، و« نوابغ الكلم » ، و« المقامات » ، وسَجَعاتٍ في كتابه « أساس البلاغة » ، وغيرِها ، ففيها المُطْرِبُ المُعْجِب ، كما له شعر كثير ، بَلَغَ ديواناً كبيراً ، وفي شعره الفصاحة والبلاغة والأصالة ، والمعاني المبتكرة ، ومن ذلك الأبياتُ التي تقدَّمتْ في رثاءِ شيخِه أبي مُضَر ، ومن شعرِهِ المناسب لهذا المقام قولُه :

العلمُ للرحمنِ جَلَّ جَلاَلُه   وسِواهُ في جَهَلاتِهِ يَتَقَمْقَمُ[1]

---

(١) في « القاموس » في مادة (قَمم) : « تقمقم : ذَهَب في الماء ، وغُمِرَ حتى غَرِقَ ! » . انتهى . ووقع في « معجم الأدباء » ١٩ : ١٢٩ ، بلفظ (يتغمغم) أي بالغين ، وهو تحريف فاعرِفْه . كما وقع فيه تحريف (يحيى) الآتي في البيت الثاني إلى (يَسْعَى) . وهو تصحيف فاجتنبه .

مـا لـلتُـرابِ وللعـلومِ وإنـمـا يَحيى لـيَـعْـلَمَ أنـه لا يَـعـلَمُ !

ومن شعره أيضاً قوله :

إذا التَصقَتْ بالبحثِ في العِلم رُكْبَتي بـرُكْبَةِ نِحـريرٍ على الجِـدِّ دَأبِ
فإنْ دام لي عونُ الإلَهِ على الذي أُعـانِيـه من فضـلٍ وبِـرٍّ وآدابِ
وإن نظرَتْ عَيْني على الوُدِّ والصَّفَا مـع البِرّ والتقـوى نواظِـرَ أُحْبابِ
فقُلْ لملوك الأرض: يَلْهُوا ويَلْعَبُوا فذلك لَهْـوِي ما حَيِيتُ وتَلْعـابِي

ومن شعره في اختياره العُزُوبةَ على الزواج وقد التَمَسَ فيه العُذْرَ لنفسه :

تصفَّحتُ أولادَ الرجالِ فلم أكَدْ أُصادِفُ من لا يَفْضَحُ الأمَّ والأبَا
رأيتُ أبـاً يَشقَى لتـربيـةِ ابنِـه ويَسْعَى لـكي يُدعَى مُكَيْساً ومُنْجِبا
أراد بـه النَّشءَ الأغـرَّ فمـا دَرَى أيُـولِيـه حِجْـراً أم يُعلِّيـه مَنكِبـا
أخـو شِقوةٍ مـا زال مركبَ طِفلِه فأصبَحَ ذاك الطفلُ للشرِّ مَرْكبا(١)
لذاك تَركتُ النَّسْلَ واختَرتُ سِيرةً مَسِيحيَّـةً أحسِنْ بـذلـك مَـذْهبـا

ولا شك أن اعتذاره هذا بعيد عن القبول ، وقد يكون دفَعَه إليه ما شهده من بعض الأبناء في معاملة بعض الآباء ، ولكن ذلك لا يُسوِّغ التشاؤم بالأولاد ، ولا الكراهيةَ لوجودِهم ، فهم رياحينُ الحياة، وأنصارُ الدين ، وحُمَّالُ الشيخوخة ، وأوتادُ البقاءِ للنوع الإنساني(٢) .

---

(١) وقع في الأصل : (للناس) . ويَبْـدُو أنه محرَّف عن (الشر) ، فأثبَتُه كذلك ، ونبَّهتُ .

(٢) وألطفُ من اعتذار الزمخشري هذا ، ما اعتَذَر به الإمامُ الأديب اللغوي ابنُ مكي الصِّقِلِّيُّ المازَرِيُّ (عمر بن خلف) ، المتوفى سنة ٥٠١ رحمه الله تعالى ، وهو صاحبُ الكتاب النفيس المطبوع : « تثقيف اللسان وتلقيح الجَنَان » . فقد قال كما في كتاب « العرب في صِقِلِّيَّة » للدكتور إحسان عباس ص ١٩٥ :

ومن هذا المشرب السابق قولُه :

كأنكمُ لم تَسمعوا أنَّ من له عِيالٌ شَقِيٌّ دَهرَه ليس يُفلِحُ
قبيحٌ بمثلي والبنون ـ كما أرى ـ جُنودُ فَسَادٍ ليس في الألفِ مُصلِحُ
إذا ارتكب الإبنُ الخليعُ فضيحةً فذاكَ لعمرُ الله للأبِ أفضَحُ
وكلُّ صنيعٍ ليس للنفع جالباً وجَرَّ وجوهَ الضُّرّ، فالتَّركُ أرْوَحُ

وقد اعتَبَر الزمخشريُّ مؤلَّفاتِه وآثارَه التي صنَّفها : أبرَّ عليه من الأبناء ، وأفضلَ عليه من الذريةوالأولاد راحةً وحُسنَ عاقبة ، فقال :

وحَسْبي تصانيفي وحَسْبي رُوَاتُها بَنِينَ بهم سِيقَتْ إليَّ مطالبي
إذا الأبُ لم يأمَنْ من ابنٍ عُقوقَه ولا أنْ يَعُقَّ الإبنَ بعضُ النوائبِ
فإنيَ منهم آمِنٌ وعليهمُ، وأعقابَهم أرجوهمُ للنوائبِ

ويكرِّر هذا المعنى بأسلوب آخر وعلى قافيةٍ ثانية فيقول :

بَنِيَّ ـ فاعلَمْ ـ بناتُ فكري حَصَانُهُمْ أُمُّهُ الدِّراسَهْ[١]
أبناءُ صِدقٍ لهم نفوسٌ وُصِفنَ بالفَضْل والنَّفاسَهْ
حُماةُ عِرضي مُحصِّنُوهُ في كَنَفِ الصَّوْنِ والحِراسه
بِرٌّ صريحٌ بلا عُقوقٍ خُلْقٌ صحيحٌ بلا شَكاسَه
ما نَسْلُ قلبي كنَسْلِ صُلْبي من قاسَ رُدَّ له قياسَه
كم بين ذي مَسْلَكٍ طَهُورٍ وسالكٍ مَسْلَك الخَساسَه
من ساسَ أبناءَه فإنَّا لهؤلاء البنينَ سَاسَهْ

=من كان منفرداً في ذا الزمانِ فقد نَجا من الذُّلِّ والأحزانِ والقَلَقِ
تزويجُنا كركوبِ البحرِ ثم إذا صِرْنا إلى ولدٍ ، صِرْنا إلى الغَرَقِ

(١) وقع في كتاب « الزمخشري » للدكتور الحوفي ص ٥٧ ، هكذا :
بَنِيَّ فاعلم بناتُ فكري حَصَانهم أمَّة الدراسةْ .
والصواب فيه عندي كما أثبته ، والله أعلم .

هذا ، وقد بلغت أبناءُ فكرِه وبناتُ قلمِه : نحوَ الخمسين مؤلَّفاً ، أذكُرُ هنا أهمَّها ، وقد استوفاها تعداداً وتحليلاً الأستاذ الفاضل الدكتور أحمد محمَّد الحَوْفي ، في كتابه « الزمخشري » ص ٥٦ ـ ٦٣ .

فمن بناتِ قلمه وأبناءِ فكره الباقياتِ بعده ـ وقد انقطع نَسْلُ كثيرٍ من الآباء الفضلاء وانطوى ذكرُهم ـ :

١ ـ الكشافُ ، في تفسير القرآن . ٢ ـ الفائق في غريب الحديث . ٣ ـ نُكَت الأعراب في غريب الإعراب ، إعراب القرآن . ٤ ـ متشابِه أسماء الرواة . ٥ ـ مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة . ٦ ـ الكلِمُ النوابغ أو : نوابغُ الكَلِم ، في الأدب والأخلاق . ٧ ـ أطواق الذهب ، في المواعظ . ٨ ـ نصائح الكبار . ٩ ـ نصائح الصغار . ١٠ ـ المقامات الأدبية . ١١ ـ نزهة المستأنِس . ١٢ ـ الرسالة الناصحة . ١٣ ـ رسالة المَسأَمَة . ١٤ ـ الرائض في الفرائض . ١٥ ـ معجم الحُدُود ، في الفقه . ١٦ ـ المنهاج ، في الأصول . ١٧ ـ ضالَّةُ الناشِد ـ ١٨ ـ الأُنموذَج ، في النحو . ١٩ ـ المُفَصَّل ، في النحو . ٢٠ ـ المُفْرَد والمؤلَّف ، في النحو . ٢١ ـ صميمُ العربية . ٢٢ ـ الأمالي ، في النحو . ٢٣ ـ أساس البلاغة ، في اللغة . ٢٤ ـ جواهر اللغة . ٢٥ ـ كتاب الأجناس . ٢٦ ـ مقدِّمةُ الأدب ، في اللغة . ٢٧ ـ كتاب الأسماء ، في اللغة . ٢٨ ـ القِسْطاس ، في العروض . ٢٩ ـ شرحُ مقاماته . ٣٠ ـ سوائرُ الأمثال . ٣١ ـ المُسْتَقْصَى في الأمثال . ٣٢ ـ ربيع الأبرار ، في الأدب والمحاضرات . ٣٣ ـ تسلية الضَّرِير . ٣٤ ـ رسالة الأسرار . ٣٥ ـ أعجَبُ العجب في شرح لامِيَّة العرب . ٣٦ ـ شرح المفصَّل . ٣٧ ـ ديوان التمثيل . ٣٨ ـ ديوان خطب . ٣٩ ـ ديوان رسائل . ٤٠ ـ ديوان شعر . ٤١ ـ شرحُ شواهد كتاب سيبويه . ٤٢ ـ كتاب الجبال والأمكنة . ٤٣ ـ شافي العِيّ من كلام الشافِعِيّ . ٤٤ ـ شقائق النعمان في حقائق

النعمان ، في مناقب الإمام أبي حنيفة . ٤٥ ـ الأحاجي النحوية . وغيرُها .

هذا ، وقد حذَّرَ الشيخُ الإمامُ ابنُ أبي جَمْرة الأندلسي ، من قراءة كتب الزمخشري ، للعارِف بدسائس الاعتزال ، لأنه لا يأمَنُ الغفلة ، فتسبِقُ إليه تلك الدسائس ، ولغيرِ العارف أيضاً ، لأن تلك الدسائس تَسبِقُ إليه وهو لا يَشعُر ، فيصير معتزلياً . نَقَل هذا عنه الحافظ ابن حجر في « لسان الميزان » ٦ : ٤ ، في ترجمة الزمخشري ، ثم قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى :

« وقد كان الزمخشري في غايةِ المعرفة بفنون البلاغة وتصرُّفِ الكلام ، وكتابُه : « أساس البلاغة » من أحاسِنِ الكتب ، وقد أجاد فيه ، وبيَّن الحقيقةَ من المجاز في الألفاظ المستعملة إفراداً وتركيباً .

وكتابُه : « الفائق في غريب الحديث » من أنفس الكتب ، لجمعِهِ المتفرِّق في مكان واحد ، مع حُسْن الاختصار وصِحةِ النقل .

وله كتاب « المفصَّل » في النحو مشهور . ورأيتُ له مصنَّفاً في (المشتبِه) ، في مجلدٍ واحد ، وفيه فوائدُ جليلة .

وأما « التفسير » فقد أُولِعَ الناسُ فيه ، وبَحَثُوا عليه ، وبيَّنوا دسائسَه ، وأفردوها بالتصنيف ، ومن رسَخَتْ قدمُه في السُّنَّة ، وقرأ طَرَفاً من اختلاف المقالات انتفع بتفسيره ، ولم يَضُرَّه ما يُخشَى من دسائِسِه ، عفا الله عنه » . انتهى .

١٣ - ومن العلماء العزاب

الإمام النحوي اللغوي المفسِّر المقرىء المحدِّث الأديب أبو محمد المعروف بابن الخشاب ، عبد الله بن أحمد بن الخشاب الحنبلي البغدادي ، المولود سنة ٤٩٢ ، والمتوفى سنة ٥٦٧ رحمه الله تعالى . جاء في ترجمته في « معجم الأدباء » ١٢ : ٤٧ ـ ٥٣ و« إنباه الرواة » ٢ : ٩٩ ـ ١٠٣ و« وفيات الأعيان » ١ : ٢٦٧ و« ذيل طبقات الحنابلة » للحافظ ابن رجب ١ : ٣١٦ ـ ٣٢٣ ما يلي :

كان أعلم أهل زمانه بالنحو ، حتى يقال : إنه كان في درجة أبي علي الفارسي . وكانت له معرفة جيدة بالتفسير والحديث والفرائض واللغة والشعر والعربية والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة ، وما من علم من العلوم إلا وكانت له فيه يدٌ حسنة . وكان حافظاً لكتاب الله تعالى ، قد قرأه بالقراءات الكثيرة .

أخذ النحو عن أبي بكر بن جوامُرْد القَطَّان ، ثم عن أبي الحسن علي بن زيد الفَصِيحي الأَسْتَراباذي ، ثم عن الشريف أبي السعادات الشَّجَري ، وقاطَعَه ورَدَّ عليه في « أماليه » .

وقرأ اللغة والأدب على أبي منصور الجَواليقي ، وعلى أبي علي الحسنِ بن علي المحوَّلي ، وغيرِهما ، وتلقى الحسابَ والهندسة عن أبي

بكر بن عبد الباقي الأنصاري ، والفرائضَ عن أبي بكر المرزوقي ، وسَمِعَ الحديثَ من مشايخ وقته وأكثر ، وسَمِع من أبي الغنائم النَّرْسي ، وأبي القاسم ابن الحُصَين ، وأبي العِزّ بن كادِش ، وجماعة ، وقرأ العالي والنازل ، ولم يزل يقرأ حتى علا على أقرانه ، وكان حريصاً على السماع ، مداوماً بالقراءةِ على المشايخ في عُلوِّ سِنّه ، وكان يكتب خطاً مليحاً في نهاية الحُسن ، وجمع كتباً كثيرة جداً ، واقتَنى الأصول الحِسان من أي وجه اتفق له ، وكان يَضَنُّ بها .

وكان يقرأ الحديث الشريف قراءة سريعة صحيحة مفهومة ، قال الإمام أبو شجاع عُمَر بن أبي الحسن البِسطاميّ ببُخَارَى : لمَّا دخلتُ بغداد قرأ عليَّ أبو محمد ابنُ الخشاب كتابَ « غريب الحديث » لابي محمد القُتَيْبي ، قراءةً ما سمعتُ قبلَها مثلَها في الصحة والسرعة ، وحَضَر جماعةٌ من الفضلاء سماعَها ، وكانوا يريدون أن يأخذوا عليه فلتةَ لسانٍ ، فلم يقدروا على ذلك . وكان يُديمُ القراءة من غير فتور .

قال تلميذُه الحافظ أبو محمد بن الأخضر : دخلتُ عليه يوماً وهو مريض ، وعلى صدره كتاب ينظر فيه ، قلت : ما هذا ؟ قال : ذَكَر ابنُ جني مسألةً في النحو ، واجتَهَد أن يَستشهد عليها ببيت من الشعر فلم يَحضره ، وإني لأعرفُ على هذه المسألة سبعين بيتاً من الشعر، كلُّ بيت من قصيدة يَصلح أن يُستشهَدَ به عليها .

وقرأ عليه الناسُ مدة وانتفعوا به ، وتخرَّج به جماعة في علم النحو وغيره، وَرَوى كثيراً من الحديث ، وسَمِعَ منه الحافظ أبو سعد السمعاني ، وأبو أحمد بن سُكَيْنة ، وأبو محمد بن الأخضر ، وكان ثقةً في الحديث صدوقاً نبيلاً حُجَّة ، إلا أنه لم يكن في دينه بذاك .

وكان بخيلاً متبذِّلاً في ملبسه وعيشه ، قليلَ المبالات بحفظ نامُوسِ العلم ، يلعب بالشطرنج مع العوامِّ على قارعة الطريق ، ويقف في الشوارع على حِلَق المشعوِذين واللاعبين بالقرود والدِّبَاب ، كثيرَ المِزاح واللعب، طيِّبَ الأخلاق ، وكان كلامه في حِلَق الإفادة أجودَ من قلمه ، وكان ضيِّقَ العطن ضَجُوراً ، ما صنَّف تصنيفاً فكمَّله، ولم يتزوَّج قط ولا تسرَّى .

وكان يتعمم بالعمامة فتبقى أشهراً على حالها ! حتى تَسْوَدَّ أطرافُها من عَرَقِه مما يلي رأسَه وتتقطَّعَ من الوَسَخ ، وترمي عليها الطيورُ ذَرْقَها ! وكان إذا رفعَها عن رأسه ثم أراد لُبْسَها ، تَركها على رأسه كيفما اتفقت ، فتجيءُ عَذَبَتُها تارةً من تلقاء وجهه ، وتارةً عن يمينه ، وتارةً عن شِماله ، فلا يُغيِّرُها ! فإذا قيل له في ذلك يقول : مااستَوَتْ العمامةُ على رأسِ عاقلٍ قط . وكان رحمه الله ظريفاً مزَّاحاً ذا نوادر .

وكانت له دار عتيقة ولأخ له ومن شاركهما في ورثةِ أبيه ، وله منها صُفَّةٌ كبيرة منفردة ، وبها بواريُّ قَصَب ـ أي حُصْرٌ ـ مفروشة ، وفي صدرها ألواح من الخشب ، مرصوص عليها كتب له ، أقامت عِدَّةَ سنين ما أُزيل عنها الغُبار ، وكانت تلك البواري استترت بما عليها من التراب ، يقعد في جانب منها ، والباقي على تلك الحالة ، وقيل : إن الطيور عشَّشت فوق الكتب وفي أثنائها .

وكان لا يقتني من الكتب إلا أردأها صورة ، وأرخصَها ثمناً ، وله وظيفة في بعض الأماكن في بغداد . وكان إذا حضر سوق الكتب وأراد شراءَ كتاب غافَلَ الناس وقَطَع منه ورقة ، وقال : إنه مقطوع ليأخذه بثمن بَخْس، وإذا استعار من أحد كتاباً وطالبه به ، قال : دَخَل بين الكتب فلا أقدر عليه . وكان إذا كتب كتاباً بخطه يُشتَرى بالمئين ، وتتنافَسُ عليه بواعثُ المستفيدين .

وقد كان يَكتبُ خطاً حسناً ، ويَضبطُ ضبطاً متقَناً ، فكتَبَ كذلك كثيراً من

كتب الأدب والحديث وسائر الفنون ، وحصَّل من الكتب والأصول وغيرها ما لا يَدخل تحت الحصر ، ومن خطوط الفضلاءِ وأجزاءِ الحديث : شيئاً كثيراً .

وذكَرَ ابنُ النجار انه لم يَمُت أحدٌ من أهل العلم وأصحابِ الحديث ، إلا وكان يَشتري كتبَه كلَّها ، فحصَلَتْ أصولُ المشايخ عنده ، وكان لا يخلو كُمُّهُ من كُتُب العلم .

وذكَرَ عنه انه اشترَى يوماً كتباً بخمس مئة دينار ، ولم يكن عنده شيء ! فاستَمهَلَهم ثلاثةَ أيام ، ثم مَضَى ونادى على داره ، فبلغَتْ خمسَ مئة دينار ، فنقد صاحبها ، وباعه بخمس مئة دينار ، ووفَّى ثمنَ الكتب ، وبقيت له الدار ، ولما مَرِضَ أشهد عليه بوقف كتبه[1] فتفرقَتْ وبيع أكثرها ولم يَبق إلا عشرُها ، فتُركَتْ في رِباط المأمونية وَقْفاً .

صنَّف شَرْحَ اللُّمَع لابن جني ، ولم يتمه ، والمرتَجَل في شرح الجُمَل للزجَّاجي ، والردَّ على ابن باب شاذ في شرح الجُمَل ، والردَّ على الخطيب التبريزي في تهذيب إصلاح المنطق ، وشَرَح مقدمة الوزير يحيى بن هُبَيرة الحنبلي في النحو وقَطَّعها قبل الإتمام ، ويقال : إنه وصله عليها بألف دينار . وألَّف الردَّ على الحريري في مقاماته . ووقف كتبه على أهل العلم قبل موته . ودُفِن بمقبرة الإمام أحمد بباب حرب في بغداد .

ورُئي بعد موته بمدة في النوم على هيئةٍ حسنة ، فقيل له : ما فَعَل الله بك ؟ قال : غَفَر لي ، قيل : ودخلتَ الجنة ؟ قال : نعم إلا أن الله أعرض عني ، قيل : أعرض عنك ؟ قال : نعم وعن كثيرٍ من العلماء ممن لا يَعمل بعلمه . رحمه الله تعالى .

---

(١) هكذا وقعت العبارة بطولها في « ذيل طبقات الحنابلة » لابن رجب ١ : ٣١٩ ، وفيها اضطراب وخَلَل لم أهتد الى تصويبه .

١٤ ـ وَمِنَ العُلَمَاءِ العُزَّابِ

أبو الفتح ناصح الدين الحنبلي ، المعروف بابن المَـنِّيّ ، جاء في ترجمته في « ذيل طبقات الحنابلة » للحافظ ابن رجب الحنبلي ١ :٣٥٨ ـ ٣٦٤ ، ما خلاصتُه : « نَصْر بن فِتْيان بن مَطَر النَّهْرَواني ، ثم البغدادي ، أبو الفتح الفقيه الزاهد ، المعروفُ بابن المَـنِّيّ[١] ، ناصحُ الدين وناصحُ الإسلام ، وأحَدُ الأعلام ، وفقيهُ العراق على الإطلاق . ولد سنة ٥٠١ ، وتوفي سنة ٥٨٣ .

تفقَّه على أبي بكر الدِّيْنَوَرِي ، ولازَمَه حتى بَرَع في الفقه ، وتقدَّمَ على أصحابه ، وأعاد له الدرسَ ، وصَرَفَ همتَه طُولَ عمره إلى الفقه ، أصولاً

---

(١) قال الذهبي في « مشتبه النسبة » ص ٥٦٩ ، وابن حجر في « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » ٤ : ١٢٥٠ « هو بفتحِ الميم وتشديدِ النون وكسرِها : العلامة ناصح الإسلام ، أبو الفتح نصر بن فتيان بن المَنِّي ، شيخ الحنابلة ، في حدود السبعين وخمس مئة .

وابنُ أخيه محمد بن مقبل بن فتيان بن المَنِّي ، حدَّث عن شُهْدة .

وأبو عبد الله محمد بن مَنِّي البغدادي ، حكى عنه أبو عُمَر الزاهد » . انتهى . ونقله الحافظ الزَّبِيدي في « تاج العروس » ٩ : ٣٥١ في آخر (منن) ، وانظر ما يفيد ضبطَه وزناً في شعر ورد في « ذيل طبقات الحنابلة » لابن رجب ١ : ٤٤١ ، في ترجمة عصريه (أحمد بن إبراهيم الصقَّال الطيبي البغدادي) .

وفروعاً ، مذهباً وخلافاً ، واشتغالاً وإشغالاً ، ومناظرة . وتصدَّر للتدريس والاشتغال والإفادة ، وطال عُمُره ، وبَعُدَ صِيتُه ، وقَصَدَه الطلبةُ من البلاد ، وشُدَّت إليه الرحال في طلب الفقه ، وتخرج به أئمة كثيرون .

قال ابن الحنبلي : أفتى ودَرَّس نحواً من سبعين سنة ، ما تزوَّج ولا تسرَّى ، ولا رَكِبَ بغلة ولا فرساً ، ولا مَلَك مملوكاً ، ولا لَبِس الثياب الفاخرة إلا لِباسَ التقوى . وكان أكثَرُ طعامِه ماءَ الباقِلاّ - أي ماء الفُول - ، وكان إذا فُتِحَ عليه بشيء فرَّقه بين أصحابه ، وكان لا يتكلَّمُ في الأصول ، ويكره من يَتكلَّمُ فيه ، سليمَ الاعتقاد ، صحيحَ الانتقاد في الأدلةِ الفُروعية ، وكنا نزورُ معه في بعض السنين قبرَ الإمام أحمد .

وسمعتُ الشيخ الإمام جمال الدين بن الجوزي - وقد رآه - يقول له : أنت شيخُنا . وأُضِرَّ بعدَ الأربعين سنة ، وثَقُلَ سمعُه . وكانت تعليقَتُه في الخلاف على ذهنه ، وفقهاءُ الحنابلة اليومَ في سائر البلاد يَرجعون إليه وإلى أصحابه .

قلت - القائل الحافظ ابن رجب - : وإلى يومنا هذا الأمرُ على ذلك ، فان أهل زماننا إنما يَرجعون في الفقه من جهةِ الشيوخ والكتبِ إلى الشيخين : موفقِ الدين بن قُدَامة المقدسي ، ومجدِ الدين ابن تيمية الحَرَّاني الدمشقي . فأما الشيخُ ابن قدامة فهو تلميذُ ابنِ المَنِّيِّ ، وعنه أَخَذ الفقه ، وأما ابنُ تيمية فهو تلميذُ تلميذِه أبي بكر محمد بن الحلاوي .

وقد جَمَع بعض فضلاء أصحابه أبو محمد عبد الرحمن بن عيسى البُزُوري الواعظُ له سِيرةً طويلة ، وقفتُ على بعضها ، ومما ذكره فيها : قال : كان رحمه الله كثيرَ الذكر والتلاوة للقرآن لا سيما في الليل ، مُكرِماً للصالحين ، محباً لهم ، ليس فيه تِيهُ الفقهاء ، ولا عُجْبُ العلماء ، إن مَرِض أحدٌ من تلامذته ومعارفه عاده ، أو كانت لهم جنازة شيَّعها ماشياً غير راكب ،

على كِبَرِ السن وضعفِ البُنية ، زاهداً في الدنيا ، يَقنَعُ منها بالبُلْغَة ، وإذا جاءه فتوح أو جائزة من بيت المال ، وزَّعها بين أصحابه ، وإن ناله منها شيء أعاده عليهم في غُضُون الأيام .

قال : ولقد حدثني من أثِقُ به من أصحابنا : أنه جاءته صِلةٌ من بعض الصدور نحوُ أربعين ديناراً ، ففرَّقها في يومه بين أهله وأصحابه ، وما أخَذ منها شيئاً ، فلما كان آخِرُ النهار قال لي : يا فلان ، لو كنا عزلنا من ذاك الذهب قيراطين للحَمَّام ؟[1] . وكان قُوتُه كل يوم قُرْصَين ، وربما لم يَفُتَّهما ـ أي ربما لم يجد مَرَقَ الفُولِ فيَفُتَّهما فيه ! ـ .

وسُئل عنه الشيخُ موفق الدين بن قدامة المقدسي ، فقال : شيخُنا أبو الفتح كان رجلاً صالحاً ، حَسَنَ النية والتعليم ، وكانت له بَرَكَةٌ في التعليم ، قَلَّ من قرأ عليه إلا انتفع ، وكان يَقنَعُ بالقليل ، ولم يتزوَّج ، وقرأتُ عليه القرآن . وكان يُحبُّنا ويَجبُرُ قلوبنا ، ويَظهَرُ منه البِشرُ إذا سَمِع كلامَنا في المسائل .

قال جامع سيرته : وابتدأ به المرض بعد نصف شعبان ، ولما ازداد مرضه أقبَل الناسُ إلى عِيادتِه من الأكابر والعلماء ، والتلامذة والأصحاب ، وحدَّثني صاحبُه أبو محمد إسماعيل بن علي الفقيه ، وهو الذي تولَّى تمريضَه ، قال : قال لي الشيخ يومَ الخميس ثاني رمضان : أيْ فَخْرُ ، آخِرُ تَعَبِك معي يومَ الأحد ، قال : وهكذا كان ، فإنه توفي يوم السبت رابع شهر

---

(١) قلت : وفي هذا الذي صنعه هذا الإمامُ الزاهد ـ إلى جانب ابتغاء الثواب والأجر ـ تفريغٌ للقلب من شواغل المال وما يستتبعه ، فيبقى قلبُه مطمئناً متفرغاً لما هو متوجه إليه من العلم والتعليم ، وفي هذا راحة وسرورٌ عظيمٌ له ، رحمةُ الله تعالى عليه .

رمضان ، ودفناه يوم الأحد ـ يعني خامسَ رمضان ـ سنةَ ثلاثٍ وثمانين وخمس مِئة .

قال : ونودي في الناس بموته ، فانثال من الخلائق والأمم عدَدٌ يَفُوتُ الإحصاءَ ، فازدحم الناس ، وخِيف من الفِتَن ، فنَفَّذَ الولاةُ : الأجنادَ والأتراكَ بالسلاح ، وفُتِحَ له جامعُ القصر ، وازدحم الناسُ ازدحاماً هائلاً ، وحَمَله أصحابُه وغِلمانُه ، وقُدِّم الشيخ الصالح سَعْدُ بن عثمان بن مرزوق المصري إماماً في الصلاة عليه ، بعدما اجتَهَد المماليكُ والأتراكُ والأجنادُ في إيصاله إلى عِندِ نَعْشِه ، وكان الناس قد ازدحموا على الشيخ سَعْدٍ أيضاً يَتبرَّكُون به ، حتى خِيفَ عليه الهلاك .

وحدثني أبو عبد الله محمد بن طنطاش البزَّار ، قال : لما وصل الشيخ سعد إلى جنازة الشيخ أمسَكَ عن التكبير ، وأطال الوقوفَ حتى سكن الناسُ وسكتوا ، وهَدَأتْ الأصوات ، بحيث لم يُسمَع سوى التكبير ، فأعجَبَ الناسَ ما فَعَل ، فلما صلَّى عليه عاد الزحامُ والخصام والاحتشاد في أبواب الجامع ، على وجه ما شُوهِدَ مثلُه إلا ما شاء الله ، رحمه الله تعالى » .

١٥ - وَمِنَ العُلَمَاءِ العُزَّاب

الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني القِفْطي ثم الحلبي ، المولود سنة ٥٦٨ ، والمتوفى بحلب سنة ٦٤٦ رحمه الله تعالى .

قال صاحبُه وخَدِينُه العلامة ياقوت الحموي ـ وقد ترجم له ترجمة مطوَّلة في كتابه « معجم الأدباء » ١٥ : ١٧٥ ـ ٢٠٤ ، أجتزىء منها بما يلي :

« أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القِفطي ، يُعرَف بالقاضي الأكرم ، . أحَدُ الكتاب المشهورين المبرِّزين في النظم والنثر . ولد بمدينة قِفط من الصعيد الأعلى بمصر ، ونشأ بالقاهرة ، واجتمعتُ بخدمته في حلب ، فوجدته جَمَّ الفضل ، كثيرَ النُّبل ، عظيمَ القَدْر ، سَمْحَ الكفّ ، طَلْقَ الوجه ، حُلْوَ البشاشة .

وكنتُ ألازِمُ منزلَه ويَحضُرُ أهلُ الفضل وأربابُ العلم ، فما رأيتُ أحداً فاتَحَه في فنّ من فنون العلم ، كالنحو واللغة والفقه والحديث وعلم القرآن والأصول والمنطق والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ والجَرْح والتعديل وجميع فنون العلم على الإطلاق إلا قام به أحسنَ قيام ، وانتظم في عِقدِهم أحسنَ انتظام . . .

وكان القاضيِ الأكرم المذكورُ جَمَّاعةً للكتب ، حريصاً عليها جداً ، لم

أر ـ مع اشتمالي على الكتب وبيعي لها وتجارتي فيها ـ أشدَّ اهتماماً منه بها ، ولا أكثَرَ حرصاً منه على اقتنائها ، وحَصَل له منها ما لم يَحصُل لأحد ، وكان مقيماً بحلب ، وذلك أنه نشأ بمصر ، وأخَذَ بها من كل علم بنصيب .

وله من التصانيف : ١ ـ كتاب الضاد والظاء ، وهو ما اشتبه في اللفظ واختَلَف في الخط . ٢ ـ كتاب الدرالثمين في أخبار المُتَيَّمين . ٣ ـ كتاب من ألوَتْ الأيام إليه فرفعَتْه ، ثم التَوَتْ عليه فوضَعَتْه . ٤ ـ كتاب أخبار المصنِّفين وما صنَّفوه . ٥ ـ كتاب أخبار النحويين . ٦ ـ كتاب تاريخ مصر من ابتدائها إلى مُلْك صلاح الدين إياها . ٧ ـ كتاب تاريخ المغرب ومن تولّاها من بني تُوْمَرْتَ . ٨ ـ كتاب تاريخ اليمن منذ اختُطَّتْ إلى الآن .

٩ ـ كتاب المجلّى في استيعاب وجوه كلّاً . ١٠ ـ كتاب الإصلاح لما وقع من الخَلَل في كتاب الصحاح للجوهري . ١١ ـ كتاب الكلام على الموطأ ، لم يتم . ١٢ ـ كتاب الكلام على الصحيح للبخاري ، لم يتم . ١٣ ـ تاريخ محمود بن سُبُكْتِكِينَ وبَنِيه إلى حين انفصال الأمر عنهم . ١٤ ـ كتاب أخبار السَّلْجُوقيَّة منذ ابتداء أمرهم إلى نهايته .

١٥ ـ كتاب الإيناس في أخبار آل مرداس . ١٦ ـ كتاب الرد على النصارى وذكر مجامعهم . ١٧ ـ كتاب مشيخة زيد بن الحَسَن الكِنْدي . ١٨ ـ كتاب نُهْزَةِ الخاطر ، ونُزهةِ الناظر ، في أحسن ما نُقل مِن على ظهور الكتب والدفاتر . انتهى ما ذكره ياقوت الحموي من مؤلَّفاته .

وذكر غيرُه من تصانيف القِفطي: ١٩ ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء . ٢٠ ـ أخبار المحمَّدين من الشعراء . ٢١ ـ أشعار اليزيدين . ٢٢ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة . ٢٣ ـ تاريخ بني بُوَيْه . ٢٤ ـ الذيل على أنساب البلاذُرِي . ٢٥ ـ المفيد في أخبار أبي سعيد ، السيرافي . ٢٦ ـ كتاب التحرير في أخبار محمد بن جرير ، الطبري .

وقال المؤرخ ابن شاكر الكتبي في « فوات الوفيات » ٢ : ١٢١ ، في ترجمته : « وجَمَع من الكتب مالا يوصف ، وقُصِدَ بها من الآفاق ، وكان لا يُحبُّ من الدنيا سواها ، ولم تكن له دارٌ ولا زوجة ، وأوصَى بكتبه للناصر صاحب حلب ، وكانت تساوي خمسين ألفَ دينار » . انتهى .

١٦ - وَمِنَ العُلَمَاءِ العُزَّابِ

الإمامُ الذي شَهِد بفضله وعلمه وصلاحه أهلُ المشرق والمغرب : الإمامُ النوويُّ ، وأنقُلُ جُملاً من ترجمته في كتاب « تذكرة الحفاظ » للحافظ الذهبي ٤ : ١٤٧٠ - ١٤٧٤ ، ثم أُتبِعُها بجُمَل من « طبقات الشافعية » للتاج السبكي .

قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى فيه : « الإمامُ الحافظ الأوحد ، القُدوة ، شيخُ الإسْلام ، عَلَمُ الأولياء ، محي الدين ، أبو زكريا ، يحيى بن شَرَف النَّوَاوِي[1] ، الحِزامي ، الحَوْرَاني ، الشافعي ، صاحبُ التصانيف المفيدة .

ولد سنة ٦٣١ ، وقَدِمَ دمشق سنة ٦٤٩ ، فسكن المدرسة الرَّوَاحِيَّة ، يتناول خُبزَ المدرسة - يَتقَوَّتُ به لا غير - ، فحَفِظَ « التنبيه » في أربعةِ أشهرٍ ونصف ، وقرأ رُبعَ « المهذَّب » حفظاً في باقي السنة على شيخه الكمال إسحاق بن أحمد المغربي ، ثم حَجَّ مع أبيه ، وأقام بالمدينةِ النبوية شهراً ونصفاً ، ومَرِضَ أكثرَ الطريق .

---

(١) يقال فيه : النووي والنواوي ، وكان يكتب بخطه (النووي) ، كما تراه في صورة خَطِّه في « الأعلام » للزركلي . وتقدم تعليقاً في ص ٣٠ بيان المراد من قولهم في ترجمة بعض العلماء الكبار : شيخ الإسلام ، فعد إليه .

ذكر شيخنا أبو الحسن بن العطار ـ تلميذُه ـ أن الشيخ محي الدين ذَكَر له أنه كان يقرأ كلَّ يوم اثنَيْ عشر درساً على مشايخه شرحاً وتصحيحاً ، درسين في « الوسيط » ـ فقه ـ ، ودرساً في « المهذَّب » ـ فقه ـ ، ودرساً في « الجمع بين الصحيحين » ـ حديث ـ ، ودرساً في « صحيح مسلم » ـ حديث ـ ، ودرساً في « اللُّمَع » لابن جني ـ نحو ـ ، ودرساً في « إصلاح المنطق » ـ لغة ـ ، ودرساً في التصريف ـ علم الصرف ـ ، ودرساً في أصول الفقه ، ودرساً في أسماء الرجال ـ من علوم الحديث ـ ، ودرساً في أصول الدين ـ عقيدة ـ[١] .

قال الشيخ محي الدين : وكنتُ أعلِّقُ جميعَ ما يتعلَّقُ بها من شرحِ مُشْكِل ، ووضوحِ عبارة ، وضَبْطِ لغة ، وبارك الله تعالى في وقتي ، وخَطَر لي أن أشتَغِلَ في الطِّبِّ ، واشتريتُ كتابَ « القانون » لابن سِينا ، فأظلَم قلبي ! وبَقِيتُ أياماً لا أقدِرُ على الاشتغال ـ أي التدريس والمطالعة ـ ! فأَفَقتُ على نفسي وبِعتُ « القانون » فأَنارَ قلبي .

سَمِعَ من الرضِيّ بن الدهان ، وشيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد الأنصاري ، وزين الدين بن عبد الدائم ، وعماد الدين عبد الكريم بن الحَرَسْتاني ، وزين الدين خالد بن يوسف ، وتقي الدين بن أبي اليسر ، وجمال الدين بن الصيرفي ، وشمس الدين بن أبي عمر ، وطبقتِهم .

وسَمِع « الكتب الستة » ، و« المسند » ، و« المُوطَّأ » ، و« شرح السُّنَّة » للبغوي ، و« سنن الدارقطني » ، وأشياءَ كثيرة . وقرأ « الكمال في أسماء الرجال » للحافظ عبد الغني المقدسي على الزين خالد بن يوسف ، وشرَحَ في أحاديث «الصحيحين» على المحدِّث أبي إسحاق إبراهيم بن

---

(١) قال عبد الفتاح : المذكور هنا أحد عشر درساً .

عيسى المرادي ، وأخَذَ الأصول على القاضي التفليسي ، وتفقَّه على الكمال إسحاق المغربي ، وشمس الدين عبد الرحمن بن نوح ، وعز الدين عمر بن سعد الإرْبِلي ، والكمال سلَّار الإربلي ، وقرأ النحو على الشيخ أحمد المصري وغيره ، وقرأ على ابنِ مالك ـ الإمامِ النَّحْوِي ـ كتاباً من تصنيفه .

ولازَمَ الاشتغالَ ـ أي التدريس ـ والتصنيفَ ، ونَشْرَ العلمِ ، والعِبادةَ والأورادَ ، والصيامَ والذكر ، والصبرَ على العيش الخَشِن في المأكل والملبس : مُلازمةً كليةً لا مَزِيدَ عليها ، مَلْبَسُه ثوبُ خام ، وعِمامتُه شبختانية صغيرة .

تخرَّج به جماعة من العلماء ، منهم الخطيب صدر الدين سليمان الجعفري ، وشهاب الدين أحمد بن جَعْوان ، وشهاب الدين الإرْبِدِي ، وعلاء الدين بن العطار ، وحدَّث عنه ابنُ أبي الفتح ، والحافظ المِزِّي ، وابنُ العطار .

قال ابن العطار : ذَكَر لي شيخنا ـ النووي ـ رحمه الله تعالى : أنه كان لا يُضيع له وقتاً لا في ليل ولا في نهار إلا في الاشتغال ، حتى في الطُّرق ، وأنه دام على هذا سِتَّ سنين ، ثم أَخَذَ في التصنيف والإفادة ، والنصيحةِ وقولِ الحق .

قلتُ ـ القائل الذهبي ـ : مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه ، والعملِ بدقائق الورع ، والمراقبةِ وتصفيةِ النفس من الشوائب ، ومَحْقِها من أغراضها : كان حافظاً للحديث وفنونِه ، ورجالِه ، وصحيحهِ وعَلِيلِه ، رأساً في معرفة المذهب ـ أيْ مذهبِ الإمام الشافعي ـ .

قال الرشيدُ بن المعلِّم : عَذَلتُ الشيخَ محي الدين في عدم دخولِهِ الحمَّام ، وتضييقِ العيش في مأكلِه وملبسِه وأحوالِهِ ، وخوَّفتُه من مرضٍ

يُعطِّلُه عن الاشتغال ، فقال : إنَّ فلاناً صام وعَبَد الله حتى اخضَرَّ جِلدُه .

وكان يمتنع من أكل الفواكه والخيار ، ويقول : أخافُ أن يُرطِّبَ جسمي ويَجلِبَ - لي - النومَ ! وكان يأكلُ في اليوم والليلة أكلةً ، ويَشرب شَربةً واحدةً عند السحر .

قال ابن العطار : كلَّمتُه في امتناعِه عن أكلِ فاكهةِ دمشق ، فقال : دمشقُ كثيرةُ الأوقافِ والأملاكِ من تحت الحَجْر ، والتصرُّفُ لهم لا يجوز إلا على وجه الغِبْطَة لهم ، ثم المعاملةُ فيها على وجهِ المساقاة ، وفيها خلاف ، فكيف تطيب نفسي بأكلِ ذلك ؟!

وكان لا يَقبل من أحد شيئاً إلا في النادر ، ممن لا يَشتغل - أي لا يَدْرُس - عليه ، أهدَى له فقير إبريقاً فقبِلَه ، وعَزَم عليه الشيخُ برهان الدين الإسكندراني أن يُفطِرَ عنده ، فقال : أَحضِر الطعامَ إلى هنا ، ونُفطرُ جملةً - أي معاً - ، فأكل من ذلك ، وكان لَوْنَيْنِ ، وربما جَمَع الشيخُ في بعض الأوقات بين إدامَيْن .

وكان يُواجه الملوكَ والظَّلَمَةَ بالإنكار ، ويَكتُبُ إليهم ، ويُخوِّفُهم بالله تعالى ، كتَبَ مرةً : (من عبد الله يحيى النووي : سلامُ الله ورحمته وبركاته ، على المولى المُحسِن مِلِك الأمراء بدر الدين ، أدام الله له الخيرات ، وتولاه بالحسنات ، وبلَّغه من خيرات الدنيا والآخرة كلَّ آمالِه ، وبارك له في جميع أحوالِه ، آمين .

ويُنْهَى إلى العلوم الشريفة - أي أرفَعُ إلى علمكم الشريف - أنَّ أهل الشام في ضِيق وضَعْفِ حال ، بسبب قلة الأمطار ، وذَكَر فصلاً طويلاً . وفي طيِّ ذلك ورقة - منه - إلى الملك الظاهر ، فرَدَّ - الظاهرُ - جوابَها ردّاً عنيفاً مؤلماً ! فتنكَّدَتْ خواطرُ الجماعة .

وله غيرُ رسالةٍ إلى الملك الظاهر في الأمر بالمعروف ، وواقَفَ الملكَ الظاهرَ بدار العدل غيرَ مرة ، فحُكي عن الملك الظاهر أنه قال : أنا أفزَعُ منه !

قال شيخنا ابنُ فَرَح : قد صار الشيخ محي الدين إلى ثلاثِ مراتب ، كلُّ مرتبة لو كانت لشخص لشُدَّت إليه الرحال : العلمُ ، والزهدُ ، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر .

وقد جَمَع ابنُ العطار سيرته في ست كراريس ، فمن تصانيفه : « شرح صحيح مسلم » ، و« رياض الصالحين » ، و« الأذكار » ، و« الأربعين » ، و« الإرشاد » في علوم الحديث ، و« التقريب » مختصره ، وكتاب « المبهمات » ، و« تحرير الألفاظ » للتنبيه ، و« العمدة » في تصحيح التنبيه ، و« الإيضاح » في المناسك ، وله ثلاث مناسك سِواه ، و« التبيان في آداب حملة القرآن » ، و« فتاواه » مجموعة في مُجَيْلِيد ، و« الروضة » أربعة أسفار .

وشَرَح « المهذَّب » إلى باب المصرَّاة في أربع مجلدات ،وشَرَح قطعةً من « البخاري » ، وقطعةً من « الوسيط » ، وعَمِلَ قطعةً من الأحكام ، وجملةً كثيرة من « الأسماء واللغات » ، ومسوَّدةً في طبقات الفقهاء ، ومن التحقيق في الفقه إلى باب صلاة المسافر ، وصنَّف التصانيف الجمة .

وسافر فزار بيت المقدس ، وعاد إلى نَوَى ، فمرض عند والده فحضَرَتْه المنية ، فانتقل إلى رحمة الله تعالى في رجب سنة ٦٧٦ ـ عن ٤٥ سنة ـ ، وقَبرُه في نَوَى ظاهر يُزارُ رحمه الله تعالى » . وقد تَرك من التآليف المجوَّدة المحقَّقة الكبيرة الكثيرة ، والمصنَّفات المستوعِبَة النادرة المفيدة ، ما لو ألَّفه في ضِعفِ هذا العمر لكان كثيراً مُدْهِشاً ، فرحمةُ الله عليه ورضوانُه العظيم .

وقال تاج الدين السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » ٨ : ٣٩٥ ـ

٣٩٦ ، في ترجمته : « الشيخُ الإمام العلامة يحيى بن شَرَف ، محي الدين ، أبو زكريا ، شيخ الإسلام ، أستاذ المتأخرين ، وحجةُ الله على اللاحقين ، والداعي إلى سَبيل السَّالفين .

كان يحيى رحمه الله سيِّداً وحَصُوراً ـ يُشير إلى أنه عاش عَزَبا لم يتزوَّج ـ ، وليثاً على النفس هَصُوراً ، وزاهداً لم يُبالِ بخراب الدنيا إذا صَيَّر دِينَه رَبْعاً معموراً ، له الزهدُ والقناعة ، ومتابعةُ السالفين من أهل السنة والجماعة ، والمُصابرةُ على أنواع الخير ، لا يَصرِفُ ساعةً في غير طاعة ، هذا مع التفنن في أصناف العلوم ، فقهاً ومتونَ أحاديث ، وأسماءَ رجال ، ولغةً ، وتصوُّفاً ، وغيرَ ذلك .

وأناإذا أردتُ أن أُجمِلَ تفاصيلَ فضلِه ، وأدُلَّ الخَلْقَ على مبلغ مقدارِهِ بمختصرِ القولِ وفَصْلِه ، لم أَزِدْ على بيتين ، أنشَدَنيهـما من لفظه الشيخُ الإمامُ ـ يعني والدَه الإمامَ تقي الدين السبكي ـ .

وكان من حديثهما أنه أعني الوالد رحمه الله ، لما سكن في قاعة دار الحديث الأشرفية ـ بدمشق ـ ، في سنة ٧٤٢ ، كان يَخرجُ في الليل إلى إيوانها ، ليتهجَّدَ اتجاهَ الأثر الشريف ، ويُمرِّغَ وجهَه على البِساط ، وهذا البساطُ من زمان الأشرفِ الواقِف ، وعليه اسمُه ، وكان النوويُّ يَجلِسُ عليه وقتَ الدَّرْس ، فأنشدني الوالدُ لنفسه :

وفي دار الحديثِ لَطِيفُ معنىً   على بُسُطٍ لها أَصْبُو وآوِي
عَسَى أني أَمَسُّ بحُرِّ وجهي   مكاناً مَسَّه قَدَمُ النَّوَاوِي » .

ثم ساق التاج السبكي في ترجمته ما لا يخرج عما ذكره الذهبي ، فاكتفيت بكلام الذهبي عنه .

وقد أُفرِدَتْ ترجمةُ الإمام النووي رحمه الله تعالى بكتب مستقلة

لطيفة ، منها كتاب علاء الدين بن العطار الذي أشار إليه الذهبي ، ومنها كتاب الحافظ السخاوي : « المنهل العذب الروي في ترجمة الإمام النووي » ، وطبع بالقاهرة سنة ١٣٥٤ ، وفيه رسائل الإمام النووي إلى الملك الظاهر ثم رُدودُه على رسائل الملك الظاهر ، وذكرُ مواقفه منه . وكتاب الحافظ السيوطي : « المنهج السوي في ترجمة النووي » ، وكتاب السُّحَيمي : أحمد بن محمد المصري الشافعي المتوفى سنة ١١٧٨ ، كما ذكره الزركلي في « الأعلام » في ترجمة النووي رحمه الله تعالى . وكتاب « الإمام النووي » للأستاذ الشيخ عبد الغني الدَّقْر ، من علماء دمشق وهو مطبوع بدمشق .

١٧ - ومن العلماء العزاب

الإمامُ شيخ الإسلام[١] ابن تيمية الحَرَّاني ثم الدمشقي. المولود سنة ٦٦١ ، والمتوفى سنة ٧٢٨ رحمه الله تعالى ، عن ٦٧ سنة من العمر ، وعن تصانيف تبلغ نحو خمس مئة مجلد .

وترجمتُه واسعة جداً ، أجتزىء منها بما يلي عن الحافظ الذهبي وغيرِه ممن عاصَرَه وخالَطَه وخَبَره وعَرَفه ، وقد كتب عنه الحافظ الذهبي في كثيرٍ من كتبه ، ومدَحَه ونَقَده ، وأثنى عليه ثناءاً بالغاً في إمامته وعلمه ودينه وصلاحه وتقواه وزهده ، فترجمتُه له أوفى التراجم وأشمَلُها .

قال رحمه الله تعالى في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١٤٩٦ ، هو « الشيْخُ الإمام العلامة ، الحافظ الناقد ، الفقيه المجتهد ، المفسر البارع ، شيخ الإسلام ، عَلَمُ الزهاد ، نادرة العصر ، تقيُّ الدين أبو العباس أحمد ابنُ المفتي شهاب الدين عبدِ الحليم ، ابنِ الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجدِ الدين عبدِ السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ، الحرَّانيُّ ، أحَدُ الأعلام .

ولد ـ بحَرَّان ـ في ربيع الأول سنة ٦٦١ ، وقَدِمَ ـ إلى دمشق ـ مع أهله

---

(١) تقدم تعليقاً في ص ٣٠ بيان المراد من قولهم في ترجمة بعض الرجال الكبار : (شيخ الاسلام) ، فعد إليه .

سنة ٦٦٧ ، فَسَمِعَ ـ الحديثَ ـ من ابن عبد الدائم، وابن أبي اليُسر ، والكمال بن عَبْد ، وابن الصيرفي ، وابن أبي الخير ، وخلقٍ كثير . وعُني بالحديث ، ونَسَخَ الأجزاء ، ودار على الشيوخ ، وخرَّج وانتَقى ، وبَرَع في الرجال وعِلَل الحديث وفقهِه ، وفي علوم الإسلام ، وعلم الكلام ، وغيرِ ذلك .

وكان من بحور العلم ، ومن الأذكياء المعدودين ، والزهاد الأفراد ، والشجعان الكبار ، والكرماء الأجواد ، أثنى عليه الموافق والمخالف ، وسارت بتصانيفه الركبان .

حدَّث بدمشق ومصر والثغر ـ أي الإسكندرية ـ ، وقد امتُحِنَ وأُوذِي مرَّات ، وحُبِس بقلعة مِصر والقاهرةِ والإسكندرية ، وبقلعة دمشق مرتين ، وبها توفي في العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ في قاعة ، معتقلاً ، ثم جُهِّز وأُخرج إلى جامع البلد ، فشهده أمم لا يحصون ، فحُزِرُوا بستين ألفاً ، ودُفِنَ إلى جنب أخيه الإمام شرف الدين عبد الله ، بمقابر الصوفية رحمهما الله تعالى[١] .

وقد انفرد بفتاوى نِيلَ من عِرضه لأجلها ، وهي مغمورة في بحر علمه ، فالله تعالى يسامحه ويرضى عنه ، فما رأيتُ مثلَه ، وكلُّ أحدٍ من الأُمَّةِ فيؤخذُ من قوله ويترك ، فكان ماذا ؟ »[٢] . انتهى .

---

(١) قال عبد الفتاح : وما يزال قبرُه معروفَ المكان إلى الآن ، وهو في ساحة كلية الطب بجامعة دمشق ، وبجواره قبرُ عَصْريِّه وصاحبِه الإمام حافظ الدنيا أبي الحَجَّاج المِزِّي ، داخل سياج من حديد يحيط بهما ، زرتهما رحمهما الله تعالى وقرأتُ الكتابة على قبريهما من أكثر من ثلاثين سنة .

(٢) سَقَط هذا المقطعُ سهواً من نقلِ الدكتور صلاح الدين المنجد ، حين نَقَل ترجمة ابن تيمية من « تذكرة الحفاظ » إلى كتابه « شيخ الإسلام ابن تيمية » ص ٧ ، فاقتَضَى التنبيهَ إليه .

وقال الحافظ الذهبي أيضاً ، في « معجم شيوخه » مترجِماً لابن تيمية أيضاً : « شيخنا وشيخ الإسلام ، وفريد العصر علماً ومعرفة وشجاعة وذكاء وتنويراً إلّهياً، وكرماً ونصحاً للأمة ، وأمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر .

سَمِع الحديث ، وأكثر بنفسه من طلبه ، وكتب ، وخرَّج ، ونَظَر في الرجال والطبقات ، وحَصَّل ما لم يحصِّله غيره .

وبَرَع في تفسير القرآن ، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيَّال ، وخاطرٍ وقَّادٍ إلى مواضع الإشكال ميَّال ، واستنبط منه أشياء لم يُسبَق إليها . وبَرَع في الحديث وحفظه ، فقلَّ من يحفظ الحديث معزوّاً إلى أصوله وصحابته ، مع شدة استحضار له وقت إقامة الدليل . وفاق الناس في معرفة الفقه ، واختلاف المذاهب ، وفتاوى الصحابة والتابعين ، بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب ، بل بما يقوم دليلُه عنده .

وأتقن العربية أصولاً وفروعاً ، وتعليلاً واختلافاً ، ونظر في العقليات ، وعَرَف أقوال المتكلمين ، ورَدَّ عليهم ، ونبَّه على خطئهم ، وحذَّر ، ونَصَر السُّنَّة بأوضح حُجَج وأبهر براهين .

وأوذي في ذات الله من المخالفين ، وأُهِينَ في نصر السنة المحضة ، حتى أعلى الله مناره ، وجَمَع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له ، وكبَتَ أعداءه ، وهَدَى به رجالاً كثيرةً من أهل المِلَل والنِّحَل ، وجَبَل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً ، وعلى طاعته ، وأحيا به الشام بل الإسلامَ بعد أن كاد ينثلم خصوصاً في كائنة التتار .

وهو أكبر من أن يُنبِّه على سيرته مثلي ، فلو حُلِّفتُ بين الركن والمقام لحَلَفتُ أني ما رأيتُ بعينيَّ مثلَه ، وأنه ما رأى مثلَ نفسِه في العلم . انتهى من « شذرات الذهب » ٦ : ٨١ .

وقال الحافظ الذهبي أيضاً في « الدرة اليَتِيميَّة في السيرة التيمية » :

« وعُني الشيخ تقي الدين بالحديث ، ونَسَخ جملة ، وتعلَّم الخطَّ والحساب في المكتب ، وحفظ القرآن ، ثم أقبل على الفقه ، وقرأ أياماً في العربية على ابن عبد القوي ، ثم فَهِمها وأَخَذَ يتأمَّلُ كتاب سيبويه حتى فَهِمه ، وبَرَع في النحو ، وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً حتى سَبَق فيه ، وأَحكَم أصولَ الفقه ، كل هذا وهو ابنُ بضع عشرة سنة ، فانبهر الفضلاءُ من فرط ذكائه ، وسيلان ذهنه ، وقوَّة حافظته وإدراكه ، ونشأ في تصوُّنٍ تام ، وعفاف وتعبُّد ، واقتصاد في الملبس والمأكل .

وكان يَحضر المدارس والمحافل في صغره ، فيُناظِرُ ويُفحِمُ الكبار ، ويأتي بما يتحيرون ، وأفتى وله أقل من تسع عشرة سنة ، وشَرَع في الجمع والتأليف ، وبَعُدَ صِيتُه في العلم ، وطبَّق ذكرُه الآفاق ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز ، أيامَ الجُمَع على كرسي من حفظه ، فكان يورد المجلسَ ولا يتلعثم ، وكذلك الدرس ، بتُؤَدةٍ وصوتٍ جَهْوَريّ فصيح ، يقول في المجلس أزيدَ من كراسين ، ويَكتب على الفتوى في الحال عِدَّةَ أوصال ، بخطٍ سريعٍ في غاية التعليق والإغلاق .

وكانت له خِبرةٌ تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم ، وطبقاتهم ، ومعرفةٌ بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، والصحيح والسقيم ، مع حفظِهِ لمُتُونِه الذي انفَرَد به ، وهو عجيبٌ في استحضاره واستخراج الحُجَج منه ، وإليه المنتهى في عزوه إلى (الكتب الستة) و(المسند) ، بحيث يصدق عليه أن يقال : كلُّ حديث لا يعرفه ابنُ تيمية فليس بحديث ، ولكن الإحاطة لله تعالى ، غيرَ أنه يغترف فيه من بحر ، وغيرُه من الأئمة يغترفون من السواقي .

وأما التفسيرُ فسُلِّم إليه ، وله في استحضار الآيات للاستدلال قوةٌ عجيبة ، ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه، بيَّن خطأ كثيرٍ من أقوال المفسرين ، ويكتب في اليوم والليلة من التفسير أو الفقه ، أو من الأصلين ـ أصول الفقه وأصول الكلام والتوحيد ـ ، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل

نحواً من أربعة كراريس أو أزيد . وما يَبعُدُ أنَّ تصانيفه إلى الآن تبلغ خمس مئة مجلد ، وله في غير مسألة مصنَّفٌ مفرد .

وله باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، قلَّ أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأئمة الأربعة ، وقد خالَفَ الأربعةَ في مسائل معروفة ، وصنَّف فيها واحتَجَّ لها بالكتاب والسنة ، وبقي عِدَّةَ سِنين لا يُفتي بمذهب معيَّن ، بل بما قام الدليلُ عليه عنده .

ولقد نَصَر السنة المحضة ، والطريقة السلفية ، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمورٍ لم يُسبَق إليها ، وأَطلَق عباراتٍ أحجم عنها الأولون والآخرون ، وهابوا وجَسَر هو عليها ، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مَزِيدَ عليه ، وبدَّعوه وناظروه وكابروه ، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي ، بل يقول الحقَّ المُرَّ الذي أدَّى إليه اجتهادُه وحِدَّةُ ذهنه وسعَةُ دائرته في السُّنَن والأقوال ، وجَرَى بينه وبينهم حَمَلاتٌ حَرْبية ، ووَقَعات شامية ومصرية .

وكان معظِّماً لحُرمات الله ، دائمَ الابتهال ، كثير الاستعانة بالله ، قويَّ التوكل ،ثابت الجأش،له أوراد وأذكار يُديمُها ، وله من الطَّرَفِ الآخر محبون من العلماء والصلحاء والجُند والأمراء ، والتجار والكبراء وسائرُ العامة تُحِبُّه . بشجاعته تضرب الأمثال ، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال ، ولما سافر على البريد إلى القاهرة سنة ٧٠٠ ، وحَضَّ على الجهاد ، رُتِّبَ له مرتب في كل يوم ، وهو دينار وتحفة ، وجاءَتْهُ بُقْجَةُ قُمَاش ـ أي صُرَّة ـ ، فلم يقبل من ذلك شيئاً .

وقال القاضي أبو الفتح ابن دقيق العيد : لما اجتمعتُ بابن تيمية ، رأيتُ رجلاً كلُّ العلوم بين عينيه ، يأخذ ما يريد ويدع ما يريد ، فقيل له : فلم لم تتناظرا ؟ قال : لأنه يحبُّ الكلام ، وأُحِبُّ السكوت . وحَضَر عنده شيخ

النحاة أبو حيان الأندلسي ، وقال فيه : ما رأتْ عيناي مِثلَه .

ولما جاء السلطانُ إلى شَقْحَب ـ موضع قرب دمشق ـ والخليفةُ ، لاقاهما إلى قَرْن الحرَّة ، وجَعَل يُثبِّتُهما ، فلما رأى السلطانُ كثرةَ التتار ، قال : يا خالدَ بنَ الوليد ، فقال ابن تيمية : قل : يا مالكَ يومِ الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين . وقال للسلطان : اثْبُتْ فأنت منصور، فقال له بعضُ الأمراء قل: إن شاء الله، فقال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً ، فكان كما قال .

وكان فيه قلةُ مداراة وعدَمُ تؤدة غالباً ، ولم يكن من رجال الدُّول ، ولا يَسلك معهم تلك النواميس، وأعان أعداءه على نفسه بدخوله في مسائل كبار ! لا يحتملها عقولُ أبناء زماننا ولا علومُهم ، كمسألة التكفير في الحلف بالطلاق ، ومسألة أن الطلاق بالثلاث لا يقع إلا واحدة ، وأن الطلاق في الحيض لا يقع .

وساس نفسَه سياسة عجيبة ، فحبُس مرات بمصر ودمشق والإسكندرية ، وارتفع وانخفض ، واستبد برأيه ، وعسى أن يكون ذلك كفارة له ، وكم وقع في صعبٍ بقوةِ نفسِه وخلَّصه الله . وله نظم وسط . ولم يتزوَّج ولا تسرَّى ، ولا كان له من المعلوم إلا شيء قليل ، وكان أخوه يقوم بمصالحه ، وكان لا يطلب منهم غداءً ولا عشاءً غالباً ، وما كانت الدنيا منه على بال .

وكان يقول في كثير من أحوال المشايخ : إنها شيطانية أو نفسانية ، فيُنظَرُ في متابعة الشيخ للكتاب والسنة ، فإن كانت كذلك فحالُه صحيح وكَشْفُه رحماني غالباً وما هو بالمعصوم، وله في ذلك عِدَّةُ تصانيف تبلغ مجلَّدات من أعجب العجب .

وكم عوفي من الصُّراعِ الجِنيِّ إنسانٌ بمجرَّد تهديده للجني ، وجرَتْ له

في ذلك فصول ، ولم يفعل أكثر من أن يتلو آيات ويقول : إن لم تنقطع عن هذا المصروع ، وإلا عَمِلنا معك حكم الشرع ، وإلا عَمِلنا ما يُرضي الله ورسوله .

وفي آخر الأمر ظفروا له بمسألة السفر لزيارة قبور النبيين ، وأن السفر وشَدَّ الرِّحال لذلك منهيٌّ عنه ، لقوله ﷺ : لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، ومع اعترافه بأن الزيارة بلا شَدِّ رَحْلٍ قُربةٌ ، فشنَّعوا عليه بها .

وكتب فيها جماعة بأنه يَلزَمُ من مَنْعِهِ شائبةُ تنقيص للنبوة ، فيُكفَّرُ بذلك . وأفتى عِدَّةٌ بأنه مخطىء بذلك خطأ المجتهدين المغفور لهم ، ووافقه جماعة .

وكَبُرَتْ القضية ، فأعيد إلى قاعة بالقلعة ، فبقي بضعاً وعشرين شهراً ، وآل الأمر إلى أن مُنِع من الكتابة والمطالعة ، وما تركوا عنده كُرَّاساً ولا دَواةً، وبقي أشهراً على ذلك، فأقبل على التلاوة والتهجد والعبادة حتى أتاه اليقين.

فلم يفجأ الناسَ إلا نعيُه ! وما علموا بمرضه ، فازدحم الخلقُ عند باب القلعة وبالجامع زحمةَ صلاة الجمعة وأرجح ، وشيَّعه الخلقُ من أربعة أبواب البلد ، وحُمِل على الرؤوس ، وعاش ٦٧ سنة وأشهراً ، وكان أسودَ الرأس واللحية ، قليلَ الشيب ، شعرُه الى شحمة أذنيه ، ربعة من الرجال ، جَهْوَريَّ الصوت ، أبيضَ ، أعينَ ، كأن عينيه لسانان ناطقان ، بعيدَ ما بين المنكبين ، فصيحَ اللسان ، سريعَ القراءة ، تعتريه حِدَّة ثم يَقهرها بحِلْم وصفح . انتهى من تاريخ ابن الوردي : « تتمة المختصر في أخبار البشر » ٢ : ٤٠٦ ـ ٤١٣ .

وقال الحافظ الذهبي أيضاً : ما رأيت أحداً أسرعَ انتزاعاً للآياتِ الدالة على المسألة التي يوردها منه ، ولا أشدَّ استحضاراً لمتون الأحاديث وعَزْوِها إلى « الصحيح » أو « المسند » أو « السُّنن » ، كأن ذلك نُصْبَ عينيه ، وعلى

طرف لسانه ، بعبارة رشِيقة حلوة ،وعينٍ مفتوحة ، وإفحام للمخالف ، وكان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه ، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين .

وأما معرفة أقوال الخوارج والروافض والمعتزلة والمبتدعة، فكان لا يُشَقُّ فيها غُبارُه ، هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثلَه قط ، والشجاعة المفرطة ، والفراغ عن ملاذ النفس ، من اللباس الجميل والمأكل والطيب والراحة الدنيوية .

لا تكاد نفسُه تشبع من العلم ، ولا تَرْوَى من المطالعة ، ولا تَمَلُّ من الاشتغال ، ولا تكِلُّ من البحث ، وقلَّ أن يَدخل في علم من العلوم في باب من أبوابه ، إلا ويُفتَح له من ذلك الباب أبواب ، ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حُذَّاق أهله . انتهى . نَقَلَه تلميذُه المؤرخ الأديب الصلاح الصفدي في كتابه « الوافي بالوفَيَات » ٧ :١٦ .

وقال فيه الصلاح الصفدي أيضاً : « ورأيتُه مرات بمدرسة القَصَّاعين وبالحنبلية . وكان إذا تكلَّم أغمَضَ عينيه ، وازدحَمَت العبارةُ على لسانه ، فرأيتَ العَجَب العجيب ، والحَبْرَ الذي ماله مُشاكِلٌ في فنونه ولا ضَرِيب ، والعالمَ الذي أَخذ من كل شيء بنصيب ، سَهْمُه للأغراض مُصِيب ، والمُناظرَ الذي إذا جال في حومة الجدال رَمَى الخصوم من مَبَاحِثه باليوم العصيب .

وعاينتَ بَدْراً لا يَرى البدرُ مِثلَهُ   وخاطبتَ بحراً لا يَرى العَبْرَ عائمُه[1]

واجتمعتُ به مرات ، وكنت أحضُرُ دروسَه في الحنبلية ، ويقع لي أثناء كلامه فوائدُ لم أسمعها من غيره ، ولا وقفتُ عليها في كتاب .

---

(١) العِبْر بكسر العين ويفتح : الشاطىء ، كما في « القاموس » .

وعلى الجملة : فما رأيتُ ـ ولا أرى ـ مثلَه في اطلاعه وحافظته ، ولقد صَدَّق ما سمعنا به عن الحُفَّاظ الأُوَل ، وكانت هِمَّتُه عليَّةً إلى الغاية ، وكان كثيراً ما يُنشِد قول ابن صُرَّ دُرّ :

تموتُ النفوسُ بأوصابها ولم يَدْرِ عُوَّادُها ما بها
وما أنصفَتْ مُهجةٌ تشتكي أذاها إلى غير أحبابها

ويُنشِدُ أيضاً :

من لم يُقَد ويُدَسَّ في خيشومه رَهَجُ الخميس فلن يَقُودَ خميسا

وكان ذا قلم يسابق البَرْق إذا لَمع ، والوَدْقَ إذا قَبَع[١] ، يملي على المسألة الواحدة ما شاء من رأس القلم ، ويكتب الكراسين والثلاثة في قعدةٍ واحدة ، وحَدُّ ذهنه ما كل ولا انثَلَم .

وقد تحلَّى « بالمُحلَّى » ، وتولَّى من تقليده ما تولَّى ، فلو شاء أورده عن ظهر قلب ، وأتى بجملة ما فيه من الشَّناع والثَّلْب . وضَيَّع الزمان في رده على النصارى والرافضة ، ومن عانَدَ الدين أو ناقَضَه ، ولو تصدَّى لشرح البخاري أو لتفسير القرآن العظيم ، لقلَّد أعناق أهل العُلوم بدُرِّ كلامه النظيم[٢] .

وكان من صغره حريصاً على الطلب ، مجداً على التحصيل والدأب ، لا يُؤثر على الاشتغال ـ أي تحصيل العلم ـ لَذَّة ، ولا يُؤثر أن تضيع منه لحظةٌ في البطالة فَذَّة ، يذهل عن ـ الطعام ـ ويغيب في لذة العلم عن حِسّه ، لا يطلب أكلاً إلا إذا حضر لديه ، ولا يرتاحُ إلى طعامٍ أو شرابٍ في أُبْرَدَيْهِ » . ـ أي في الغَداةِ والعَشِيّ ـ انتهى من « الوافي بالوفيات » ٧ : ١٩ ـ ٢٢ ، ومن

---

(١) الودق : المطر . وقوله : (إذا قَبَع) . كذا في المطبوع . وهو بعيد عن الصحة لغةً ، أو لعله ضمَّن (قَبَع) معنى هَطَل واستَمَّر ؟ فتأمَّل ، والله تعالى أعلم .

(٢) قلت : وقد نَدِم الشيخ ابن تيمية على تضييع أكثر أوقاته في غير معاني القرآن . كما سيأتي في كلامه المنقول في ص ١٠٩ .

« أعيان العصر » للصلاح الصفدي ، عن كتاب الدكتور المنجد : « شيخ الإسلام ابن تيمية » ص ٥٠ ـ ٥١ .

وقال الحافظ شمس الدين بن عبد الهادي ، في ترجمته له في كتابه « تذكرة الحفاظ » : « وقال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : ما رأيتُ مثله ، ولا رأى هو مثلَ نفسِه ، وما رأيتُ أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبَعَ لهما منه .

وقال العلامة كمال الدين بن الزَّمَلْكاني : كان إذا سُئل عن فن من الفنون ، ظنَّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غيرَ ذلك الفن ، وحكم أنَّ أحداً لا يَعرف مثلَه . وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في سائر مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك . ولا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهلَه والمنسوبين إليه ، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف ، وجودة العبارة ، والترتيب والتقسيم والتبيين » . انتهى من « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبي .

وقال الحافظ ابن رجب في « ذيل طبقات الحنابلة » ٢ : ٣٩٢ ، في ترجمته : « وقال الإمام العلامة قاضي القضاة تقي الدين السبكي ، في كتابٍ كتبه إلى الحافظ الذهبي ، في أمر الشيخ ابن تيمية : « . . . فالمملوك يتحقق كبيرَ قدره ، وزخارةَ بحره ، وتوسُّعَه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرطَ ذكائه واجتهاده ، وبُلوغَه في كلٍ من ذلك المبلغَ الذي يتجاوزُ الوصف .

والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقَدْرُه في نفسي أكبرُ من ذلك وأجل ، مع ما جمعه الله له من الزهادةِ ، والورع ، والديانةِ ، ونصرةِ الحق ، والقيام فيه ، لا لغرضٍ سواه ، وجريهِ على سَنَن السلف ، وأخذِه من ذلك بالمأخذ الأوفى ، وغرابةِ مثلِهِ في هذا الزمان ، بل من أزمان . » انتهى .

قال جمال الدين السُّرَّمَرِّي في أماليه : ومن عجائب ما وقع في الحفظ من أهل زماننا ، أن ابن تيمية كان يمر بالكتاب مطالعةً مرةً ، فينتقشُ في ذهنه ، وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه .

قال الذهبي : ومن خالطه وعرفه فقد ينسبني إلى التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه فقد ينسبني إلى التغالي فيه ، وقد أُوذيتُ من الفريقين من أصحابه وأضداده .

وأنا لا أعتقد فيه عصمة ، بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية ، فانه كان مع سعة علمه ، وفرط شجاعته ، وسيلان ذهنه ، وتعظيمه لحُرُماتِ الدين : بشراً من البشر ، تعتريه حِدَّة في البحث وغضب وشطط للخصم ، تَزرع له عداوةً في النفوس ،وإلا لو لاطَفَ خصومَه لكان عليه كلمةُ إجماع ، فإنَّ كبارهم خاضعون لعلومه معترفون بتفوّقه ، مُقرِّون بنُدورةِ خطئه ، وأنه بحر لا ساحل له ، وكَنْز لا نظير له ، ولكن ينقمون عليه أخلاقاً وأفعالاً ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك ـ سوى رسول الله ﷺ ـ ولم أر مثلَه في ابتهاله واستغاثتِه وكثرةِ توجهه. انتهى من «الدرر الكامنة» للحافظ ابن حجر ١ : ١٧٦ .

قال الذهبي : وفي آخر الأمر حُبس بقلعة دمشق سنتين وأشهراً ، وبها مات رحمه الله تعالى . وبقي مدة في القلعة يكتب العلم ويصنفه ، ويرسل إلى أصحابه الرسائل ، ويذكر ما فتح الله به عليه في هذه المرة من العلوم العظيمة والأحوال الجسيمة .

وقال : قد فَتَح الله عليَّ في هذا الحصن في هذه المرة ، من معاني القرآن ومن أصول العلم ، بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها ، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن .

ثم إنه مُنع من الكتابة ، ولم يُترَك عنده دواةٌ ولا قلم ولا ورق ، فأقبل

على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر » . انتهى ما نقله الحافظ ابن رجب .

وقال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية ، في كتابه « الوابل الصيِّب من الكلم الطيِّب » ص ٦٦ و٥٨ : « سمعتُ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية قدَّس الله رُوحَه يقول : إن في الدنيا جَنَّةً ـ يعني بها : جنةَ الإيمان بالله وبما جاء به سيدنا رسول الله ـ من لم يَدخلها ـ أي يتصف بها في الدنيا ـ لا يَدخُل جنةَ الآخرة .

وقال لي مرة : ما يَصنع أعدائي بي ؟ أنا جَنَّتي وبُستاني في صدري ـ يعني بذلك : إيمانَه وعِلمَه ـ ، أين رُحتُ فهي معي لا تفارقني . إنَّ حَبْسِي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سِياحة .

وكان يقول في مَحْبِسِه في القلعة : لو بَذلتُ مِلءَ هذه القلعةِ ذهباً ما عَدَل عندي شكر هذه النعمة ، أو قال : ما جزيتُهم على ما تَسبَّبوا لي فيه من الخير .

وكان يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم أعني على ذكرك وشُكرك وحُسنِ عبادتِك . ما شاءالله . وقال لي مرةً : المحبوسُ من حُبسَ قلبُه عن رَبِّه تعالى ، والمأسورُ من أسَرَه هواه . ولما دَخَل القلعةَ وصار من داخل سُورِها ، نَظَر إليه وقال : ﴿فضُرِبَ بينهم بسُورٍ له باب ، باطِنُه فيه الرحمة ، وظاهِرُهُ من قِبَلِه العذاب﴾ .

وعَلِمَ الله ما رأيتُ أحداً أطيبَ عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من ضِيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجافِ ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرِّهم نفساً ، تلُوحُ نَضرةُ النعيم على وجهه .

وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ،

أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ونَسمَع كلامَه ، فيذهبَ عنا ذلك كلُّه ، وينقلبَ انشراحاً وقوةً ويقيناً وطمأنينة .

فسبحان من أشهدَ عبادَه جَنَّته قبلَ لقائه ، وفَتَح لهم أبوابها في دار العمل ، فأتاهم من رَوْحها ونسيمها وطِيبها ما استفرغ قُواهم لطلبها والمسابقةِ إليها .

وسمعتُه قدَّس الله تعالى روحه يقول : الذكرُ للقلب مثلُ الماءِ للسَّمَك ، فكيف يكون حالُ السمك إذا فارق الماء ؟

وحضرتُه مرةً : صلَّى الفجر ، ثم جَلَس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ، ثم التَفَت إليَّ وقال : هذه غَدْوتي ولم أتَغدَّ ، ولو لم أتغدَّ ـ هذا ـ الغَدَاء سَقَطَتْ قُوَّتي ، أو كلاماً قريباً من هذا . وقال لي مرةً : لا أتركُ الذكر إلا بنيةِ إجمام نفسي وإراحتِها ، لأستعدَّ بتلك الراحةِ لذكرٍ آخر ، أو كلاماً هذا معناه » .

ثم قال الشيخ الإمام ابن القيم في ص ١٠٨ « الحادية والستون من فوائد الذكر : أنه يُعطي الذاكرَ قوةً ، حتى إنه ليفعلُ مع الذكر ما لم يُظَنَّ فعلُه بدونه .

وقد شاهدتُ من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية ، في سَنَنِه ، وكلامِه ، وإقدامِه ، وكتابتِه : أمراً عجيباً ، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخُ في جُمُعةٍ أو أكثر ، وقد شاهَدَ العسكرُ من قُوَّتِه في الحرب أمراً عظيماً » . انتهى .

قال عبد الفتاح : وقد اقتصرتُ فيما نقلتُه في ترجمة الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى ، على جُمَل مما حكاه العلماء الذين عاصروه وخالطوه ، في بيان عِظَم إمامته في الدين والعلم والفضل والصلاح والمآثر ، ولم أشأ نقلَ

شيء هنا مما انتقدوه عليه في مسائل الاعتقاد والفقه والتفسير وغيرها ، لأن الغاية من ذكر ترجمته في كتابي هذا : بيانُ مقامه الرفيع في تسنُّم ذروة العلم والفضائل ، وقد عاش عَزَباً ما تزوَّج ولا تسرَّى ، ولا التفت إلى ملاذِّ الحياة ومُتَعِها ، انصرافاً منه إلى العلم ، وذَوَباناً في خدمة الدين والإسلام .

وقد خلَّف من أولاد أفكاره ، وبناتِ بَنَانِه : نحوَ خمس مئة مجلد ، كما تقدم في ص ١٠٣ في كلام الحافظ الذهبي . وقد ألَّف تلميذه الشيخ ابن القيم رسالة فيَ أسماء مؤلفاته ، بلغت صفحاتها **٢٢** صفحة ، وذكَرَ فيها فيها ما يقارب **٣٥٠** مؤلفاً ، بين كتاب كبير في مجلدات ، ورسالة أو قاعدة في مجلد أو صفحات ، وقد طُبعت هذه الرسالة في المجمع العلمي بدمشق ، بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد من سنوات . وقال الحافظ ابن رجب في « ذيل طبقات الحنابلة » ٢ : **٤٠٣** : في ترجمته : « وأما تصانيفه فقد امتلأت بها الأمصار ، وجاوزت حَدَّ الكثرة ، فلا يمكن لأحدٍ حصرُها » . انتهى .

قلت : فهذه آثارُ عُزوبته ، وثمراتُ تبتُّلِه وانقطاعه للعلم ، ما تزال تُفيد الطالبين ، وتُغذِّي العارفين ، وتُمِدُّ العلماءَ والمتعلمين، على مر الدهور والسنين ، فلله درُّه ما أكثَرَ أبناء فوائدِه وعلومِه في العالم الإسلامي من زمن حياته إلى ما شاء الله من بقاء الدنيا والناس .

وللدكتور صلاح الدين المنجد كتاب أسماه : « شيخُ الإسلام ابنُ تيمية وسِيرتُه وأخبارُه عند المؤرخين » ، يزيد على ١٧٠ صفحة ، جَمَع فيه ما تُرجِمَ به الشيخُ ابنُ تيمية ، من العلماء المعاصرين له ومن بعدهم في طبقاتهم وتواريخهم ، وقد أحسن بذلك أيما إحسان .

١٨ - ومن العلماء العزّاب

شيخُ مشايخنا بحلب الشيخُ بشير الغَزِّي الحلبي ، العلامة الفقيه المفسر النحوي اللغوي الأديب الأريب الحَفَّاظة ، المولود بحلب سنة ١٢٧٤ ، والمتوفى بها سنة ١٣٣٩ رحمه الله تعالى .

قال تلميذُه شيخُنا العلامة المحدِّث محمد راغب الطباخ مؤرِّخ حلب رحمه الله تعالى ، في تاريخه « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » ٧ : ٦٢٣ - ٦٣٥ ، في ترجمته الحافلة ، ما أُلخِّصُه فيما يلي :

« العالم العلامة ، والحَبْر الفَهَّامة ، قاضي القضاة ، الشيخ محمد بشير ابن العالم الشيخ محمد هلال ابن السيد محمد الآلاجاتي الحلبي - وإنما قيل له : الغَزِّي لأنه تربَّى في حِجْر أخيه لأمِّه العلامة المؤرِّخ الأديب الشيخ كامل الغَزِّي ، الحلبي ، صاحب كتاب « نهر الذهب في تاريخ حلب » ، فنُسِب إلى آل الغَزِّي - .

ترجمه أخوه لأُمِّه رصيفُنا الفاضل الشيخ كامل الغزي ترجمةً مسهبة ، وإني آتي على خلاصةِ ترجمتِه له بتصرف يسير ، ثم أُتبِعُها بما أعلمُه من أحوالِ شيخنا وترجمته رحمه الله تعالى .

قال أخوه : ولد أخي سنة ١٢٧٤ ، ولما ترعرع حفظ القرآن العظيم في

السنة السابعة من عمره ، عند وليِّ الله الشيخ شريف الشهير بالأعرج ، وبقي عنده سنة واحدة ، وبعد أن خَرَج لازَمَ القراءة والكتابة بسائق نفسِه ، وكنتُ وهو في التاسعة من عمره ، أعطيه الكتب المخطوطة السقيمة الخط ، وأكلِّفُه قراءتها ، فكان يقرأ فيها بكل سرعة وفصاحة ، مع قلة اللحن وغلبةِ الصواب على ألفاظه .

وتعلم وهو في هذه السنِّ أيضاً رسمَ الخاتم المخمَّس ، المنسوبِ للإمام حجة الإسلام الغزالي ، علَّمه إياه الشيخ يوسف السَّرْمِيْني ، الشهيرُ بالذكاء والفطنة في عصره . وتردَّد مدةً على رجل مشهور بتصليح الساعات ، كان مقيماً في جامع العَدْلِيَّة ، يُعرَف بالشيخ عبدو ، فتعلَّم منه هذه الصنعة في أشهر قليلة ، وصار ماهراً بها .

ولما بَلَغ الثالثة عشرة من عمره ، جاوَرَ معي في المدرسة السَّيَّافِيَّة ، وأَخَذَ في حفظ المتون ، ولا أبالغُ إذا قلتُ : إنه حَفِظ « الألفية » لابن مالك ـ وهي منظومة في ألفِ بيت ، تُعَدُّ عُمدةَ علم النحو ـ في أقل من عشرين يوماً ، فكنتُ أعجَبُ من سرعة حفظه وقوة ذاكرته .

ثم أَخَذ في حفظ كتب الأدب ، فلم يَمض عليه مدةٌ وجيزة ، حتى أصبح يستوعب جملةً وافرة من أشعار العرب ، ونُبَذاً كثيرة من مختارات كتب الأدب والأخلاق ، وحَفِظَ حِصةً كبيرة من « مَتْن الكنز » في الفقه الحنفي .

وفي سنة **١٢٩٥** انتَقَل إلى المدرسة الرِّضائية ـ هي المشهورة المعروفة اليوم باسم المدرسة العثمانية ، بالقرب من باب النصر ـ ، وجاوَرَ فيها ، ومن ذلك الحين بدأ يشتهر فضلُه .

وأولُ شيء اشتهر فيه حُسنُ الصوتِ والأداءِ في تلاوة القرآن العظيم ، فكان الناس يقصدون المدرسة الرِّضائية ليلةَ الجمعة وقبلَ صلاة الجمعة ، لسماع

تلاوته في جامعها ، ثم طُلِب منه أن يؤمَّ الناس في صلاة الصبح في رمضان ، في الجامع الكبير بحلب فأجاب ، فكان الناس يقصدون الائتمامَ به في هذه الصلاة ، ويَحضُرون من أقصى المدينة لسماع قراءته ، وقد واظب على هذه الوظيفة أزيدَ من خمسٍ وعشرين سنة .

أساتذته :

قرأ على العلامة الشيخ شهيد التِّرْمانِيني : النحوَ والصرف والمعاني والبيان . ولمَّا جاوَرَ في المدرسة الرِّضائية ، لازَمَ الحضور على مدرِّسها الشيخ مصطفى الكردي ، قرأ عليه « المواقف » و« شرحه » ، والتفسير والحديث ، و« عقائد النَّسَفي » . وقرأ على الأستاذ الشيخ محمد الزرقا : معظم كتاب « الدُّر المختار » في الفقه الحنفي . وقرأ على العالم الفاضل الشيخ محمد الصابوني : علمَيْ الفرائض والعَرُوض .

ولمَّا آل التدريسُ في المدرسة الرضائية ، إلى الشيخ المحقق الشيخ حسين الكردي ، لازمه فقرأ عليه : عِلمَ المنطق وآداب البحث والمناظرة ، وجملةً من التفسير ومصطلح الحديث . وقرأ على الاستاذ إسحاق التركي : عِلمَ الميقات والفَلَك . وكان لا يُحجم عن الاشتغال في الفنون الحديثة أيضاً ، ويقول : أُحبُّ أن أكون مطلعاً على كل علم ، لأنني أخاف إذا تصدَّرتُ للإفادة ، أن يُطلَبَ مني إقراءُ علم ، فأقول : هذا لا أعرفه ، ولذا كان يشتغل في كتب الطبيعيات والفلسفة الغربيَّة .

ـ وكان من شيوخه الذين لازمهم كلَّ الملازمة ، وانتفع بعلومهم وصلاحهم الشيخُ محمد البدوي ، المولود سنة **١٢٤٩** والمتوفى سنة **١٣٣١** ، تلميذُ الإمام الشهير ، والعلامة النحرير ، الشيخ أحمد التِّرْمَانِيني . وكان الشيخ البدوي خِزانةَ علم ، وعلى غاية من الورع والتقوى والعبادةِ والانصرافِ للعلم ، وكان

مجاوراً في المدرسة الرِّضائية أيضاً ، فكان إذا تمشَّى في ساحة المدرسة للرياضة ، مَشَى معه تلميذُه الشيخ بشير ، وسأله عن المشكلات والعويصات ، فيستفيد منه من الفوائد الخاصة الغالية ما لا يصل اليه الطلبة .

وصادَفَ مرةً أن الشيخ البدوي تبرَّم منه وزجره ، فانقطعت الاستفادات الخاصة من الشيخ ، واشتدَّ حُزنُ التلميذ من هذا الحِرمان ، فكتَبَ في ورقةٍ : البيتَ المشهور في شواهد النحو :

بِبَذْلٍ وحِلْمٍ سَادَ في قومِه الفتى وكـونُـكَ إيــاهُ عليـكَ يَسِيــرُ

وتلطَّف فأدخلها إلى شُبَّاك حُجرة الشيخ بحيث يراها ، فلما رآها الشيخ صَفَح وانشرح له صدره ، وعاد معه إلى ما كان من الإفادات والإجابات عن المغلَقَات والمعضِلات ـ .

ومع اشتغاله في علوم كثيرة ، فقد وجَّه عنايتَه لحفظ اللغة والدواوين الشعرية والكتبِ الأدبية ، مع الفهم التامِّ لمعانيها ، إلى أن صار من المبرِّزين في ذلك ، بحيث فاق معاصريه ، وأقرَّ له بالسبق جهابذةُ علماءِ اللغة والأدب ونُقَّادُها في الأقطار العربية ، وجعلوه مرجعَهم وعُمدتَهم فيما صَعُبَ فهمُه وبَعُدَ إدراكُه .

وكثيراً ما كنا نبحث عن اسم شيءٍ نعرفه ولا نعرفُ له اسماً في اللغة العربية ، فبعد أن نُنقِّبَ عنه في معاجم اللغة ، ونَتَتبَّعه في الموادِّ التي هي مظنة وجوده ، فلا نظفر بعد طولِ بحثنا بطائل ، فنسأله عنه فيجيبنا على الفور والبديهة ، بحيث يقول : اسمُه كذا ، وهومذكور في المادة الفلانية من المعجم الفلاني أو في شعر فلان ، فنراجعه فنراه صريحاً كما أفاد .

والحقُّ أنه قد كان الآيةَ الكبرى في معرفة اللغة وأشعار العرب وأخبارهم ، وكان إذا تكلَّم في الأدب يَخالُ سامعُه أنه لم يَشذَّ عنه نادرةٌ منه ، وأنه يمكنه أن يُملي من حفظه كتابَ « الأغاني » و« شرح الديوان الحماسة » و« أمالي القالي »

و«كامل المبرِّد»، ومختارات الشعراء الثلاثة : الطائي والبحتري والمتنبي، وشعر أبي العلاء : « اللزوميات »و« سَقْط الزَّنْد » ، وغيرَ ذلك من محفوظاته التي يَستبعد العقلُ حفظَها ووَعْيَها في صدره .

نشأته : وقد نشأ رحمه الله تعالى في طاعة الله ، فلم تُعرَف له صبوة في شيء سوى الانكباب على العلم منذ حداثةِ سنه ونعومة أظفاره ، ملازماً مدرسته ، بعيداً عن قرناء السوء ، ولم يَتزوَّج مطلقاً ، وكنتُ إذا عرَّضتُ له بالزواج ورغَّبتُه فيه ، ينشدني قولَ المتنبي :

وما الدهرُ أهلٌ أن يُؤمَّلَ عنده حياةٌ وأن يُشتاقَ فيه إلى النَّسْلِ

ثم يُتبعُ هذا البيتَ بأبياتٍ كثيرة في هذا المعنى من « اللزوميات »وغيرها .

وكان لا يُغفِل التدقيق في أحوال الدنيا ومراقبةِ شؤونها وتلاعبِها بأهلها ، فكان يراها كما هي دارَ مِحْنَةٍ وشقاء ، نعيمُها زائل ، وظِلُّ الحياة فيها متنقِّل باطل ، تعاقَبَ على أهلها السعادةُ والشقاء ، ولذا كان حُبُّ الدنيا الذي يعتري قلوبَ عشاقها المتهالكين في طلبها وجمعِ حُطامِها بعيداً عن قلبه .

فكان لا يَفرح بما أُوتيه ، ولا يَحزن على ما فاته ، نقيَّ الفؤاد من مرض الحقد والحسد ، نفوراً من آفةِ الغيبة والنميمة ، حتى إنه كان لا يُقابل من بلَغَه عنه أنه حَسَده أو اغتابه بغير قوله : عفا الله عنه .

وكان مع هذه الخلال الحميدة سخيَّ الطبع ، يُحبُّ التفضُّلَ على الإخوان ، ولا يُقصِّرُ في بِرِّهم وإكرامهم ، كما أنه لا يقصر في التصدق على الفقراء المُعْوِزين . وكان لا يتأخر عن إجابة من طَلَب منه قرضاً وإن عَلِمَ أنه غيرُ قادر على الوفاء . وكان لطيب سريرته لا يَظنُّ السُّوءَ بأحد ، فكان عظيمَ الثقة بمن يأتمنه على ماله ، مكتفياً منه بقوله .

وظائفه : ناهَزَ رحمه الله تعالى سِنَّ الخمسين ، ولم يكن له من الوظائف

المقررة سوى ٢٠٠ قرش في الشهر ، مع أنه في تلك السنّ كان قد اشتهر فضلُه ، وطار في العالم الإِسلامي صِيتُه ، وقَصَده رُوَّادُ العلم وطلابُه يأخذون عنه بعضَ ما أشكل عليهم حَلُّه من المسائل العلمية في فنون شتى ، وكان سبَبُ قلة رواتبه عدَمَ تعرضه لشيء من الوظائف ، صوناً لشرف العلم عن التبذل ، وقناعةً بما يسَّر الله من كفاف العيش .

وأوَّلُ وظيفة حازها : أمانةُ الفتوى ، ثم عُيِّن مدرِّساً في مدرسة سعد الله المَلَطي في جامع الصَّرَوِي في البَيَّاضة وفي مدرسة القُرْناصِيَّة ، ثم عُرِضَتْ عليه وظيفة فتوى حلب ، وألحَّ عليه أهلُ الحل والعقد بقبولها ، فلم يَقبل رعايةً للمفتي الذي كان يَشغلها ، ثم انتُخب نائباً عن حلب في مجلس النواب : المبعوثين في الآستانة .

ولما كانت الحرب العامة ، وأُغلِق مجلسُ النواب ، انتُخِبَ عضواً في محكمة الحقوق ، ثم عُيِّن رئيساً فيها ، وبعد انقضاء الحرب عُيِّن مدرساً في المدرسة الرضائية ، ثم قاضياً في محكمة حلب الشرعية ، واستمر في هذه الوظيفة نحو سنتين ، ثم عُيِّن قاضي القضاة لدولة حلب ، وكان المرضُ قد ظَهَر في جسمه واستمر مشتداً إلى أن أدركته الوفاة .

الآخذون عنه : وبعد أن جاوَرَ في المدرسة الرِّضائية : جامع العثمانية ، شاع فضلُه ، فأقبل عليه كبارُ الطلبة يتلقون عنه العلوم الآلية والفنون الأدبية ، ولازمه جماعة من أدباء الاتراك وأفاضلهم ، منهم . . . ، ومنهم مظهر بك ابن بدري بك ، لازمه ملازمة طويلة ، وأَخَذَ عنه كثيراً من العلوم الآلية والآداب العربية ، وأعانه الشيخ على ترجمة « ألفية ابن مالك » إلى اللغة التركية .

وممن لازمه من أفاضل الأتراك رِفْعَتْ بك المناستيري ، صاحب المؤلفات الشهيرة عند الأتراك ، وهو الذي اقترح على الشيخ أن يُعرِّب المنظومة

الحِكَميَّة ، المعروفة باسم « ترجيع بَنْد » ، المنسوبة إلى ضياء باشا أحدِ فضلاء الأتراك ، وقد سَمَّى تعريبَها : « حدائق الرَّنْد » ، ونَظَمها نظماً بديعاً ، حَرِيّاً أن يُعدَّ من نوع السهل الممتنع ، مع محافظته على مقاصد الناظم ، دون زيادة ولا نقصان .

وقد استعان رفعت بك بالشيخ على تفسير القرآن الكريم باللغة التركية ، ففسَّر منه نحو الثلثين ، ثم أدركته منيَّتُه .

صفاته : كان رحمه الله عظيمَ الهامة ، بعيدَ ما بين المنكبين ،مُشرِقَ الوجه ، خفيفَ العارضين ، رقيقَ القلب ، يتأثر جداً لرؤية الفقراء وأرباب البلايا ، ومع ما كان عليه من الشفقة والحنان ، كان على غايةِ ما يكون من القوة والشجاعة وثباتِ الجأش ، لا يَرُوعُه حادثٌ مهما كان عظيماً ، محبوباً عند الناس خاصَّتِهم وعامَّتِهم ، وكان تلامذتُه في الغاية القصوى من محبَّتِه واحترامه .

وكان عَذْبَ المنطق ، حُلْوَ الحديث ، نادرَ الفُكاهة ، كثيرَ الصمت ، حسَنَ التفهيم ، وقلَّما يتحدث بنادرة أدبية يَعرفها أحدٌ من أهل مجلسه ، وكان يَقرأ في المدرسة الرِّضائية تفسيرَ القرآن العظيم للقاضي البيضاوي ، فيرَى منه كبارُ الطلبة : العَجَبَ العُجاب ، في تقرير مسائله ، وكشفِ مخبَّآتِ إشاراته ، وحَلِّ ما في حواشيه من العبارات الغامضة ، والتراكيب المستغربة . وكان الشعرُ من بعض محاسنه ، إذا نظَمَ في موضوعٍ جَمَع في نِظامه البداعَة والفصاحة وحُسنَ البيان .

مؤلفاته : له عدة مؤلفات ، غير أنه كان لا يَعبأ بما يؤلفه ، من ذلك كتاب في اللغة ، ضمَّنه جميع ما في « مختار الصحاح » من الكلمات اللغوية ، وجعَلَه على أسلوب حكاية سائح ، يذكر فيه حكاية الكلمة ويَعطِفُ عليها مرادفَها تفسيراً لها . ومن ذلك كتاب في الفقه الحنفي ، لخَّص فيه كتاب « الدُّرّ المختار »

وحواشيه، وهوفي مجلد ضخم ، لكنه لم يكمل . ومنها عِدَّةُ مجاميع في حادثات الفتوى ، لو جُمِعت لبلغت مجلداً كبيراً ، غير أن هذه الكتب بقيت في مُسَوَّداتها ، ثم لَعِبَتْ بها أيدي الضياع !ولم يَبق لها من أثر !

أما مؤلفاته المطبوعة : فهي رسالة في التجويد ، وترجمة « ترجيع بَنْد » ، ونَظْمُ « الشمسية » في علم المنطق ، وهونظم رائق متين ، لا يَظهر فيه أثرٌ للتكلف كما يظهر ذلك في منظومات المتون العلمية . وله من المؤلفات التي لم تطبع تفسير مختصر مفيد ، يمكن طبعُه على حاشية المصحف ، وقد بقي في مُسَوَّداته » .

قال شيخنا العلامة الطباخ رحمه الله تعالى بعد نقلِهِ ما تقدم : « هذه خلاصة ترجمة أخيه الشيخ كامل الغَزّي له ، وهو حَرِيٌّ بما قاله فيه ، فقد كان رحمه الله آيةً من آيات الله في حفظ اللغة ، ومعرفةِ معاني غريبها ، وحفظِ شواهدها ، وربما استَشهَد للكلمة الواحدة بالبيتين والثلاثة والأربعة من كلام العرب ، فكان يأخذنا لذلك منتهى العَجَب ، وكاد يأتي على حفظ « لزوم ما لا يلزم » و« سَقْط الزَّنْد » و« ديوان المتنبي » وغيرِ ذلك ، مع فهم معاني ذلك حقَّ الفهم .

وكنا نَرى أنه أجدرُ الناس بوضع شرح للزوميات أبي العلاء ، يوضح به ما هو مغلق فيه ، وهذا ما كنا نتمناه ولكنه لم يوفق لذلك ، وله مع ذلك اليد الطولى في غير ذلك من العلوم ، مثل المعاني والبيان والمنطق والتفسير والحديث ، وقرأتُ عليه قسماً كبيراً من « صحيح البخاري » إلى كتاب الحج ، حينما قرأه في الجامع الكبير وفي المدرسة العثمانية : الرِّضائية .

وكان نظمه متيناً محكماً لا حشو فيه ، حَسَن السبك منسجماً ، غير أنه لم تكن عنايتُه به كثيرة ، لا ينظم إلا عند الاقتضاء والطلب ، ولم يعتن بجَمْعه ، فذهب ما صاغه من عُقُودِه كأن لم يكن !

والذي بقي محفوظاً من آثاره الشعرية : « منظومته للشمسية » في المنطق ، ومنظومته المسماة : « حدائق الرَّند في ترجمة ترجيع بَنْد » ، وهي محتوية على كثير من الحِكَم والأمثال والمواعظ والحقائق ، ويُستشهَدُ الآن بالكثير من أبياتها، وأوَّلُها :

ذا مَعْمَلُ الصُّنعِ العجيبِ مكتَبُ ... نُقوشُه عن عِلمِ غيبٍ تُعرِبُ
وفَلَكٌ طاحونةُ المصائبِ ... والناسُ فيها مِثلُ حبٍّ ذاهبِ
مُلتَقِماً أفراخَه كالعِفْرِيَه ... وهْوَ كوكْرِ الطَّيْر واهِي الأرْوِيه[١]
ومن يُحقِّق يَجِدِ الأشياءَ ... مناماً أو خيالاً أو هباء
والمرءُ عن كسب اليقينِ عازِبُ ... والاعتقادُ عن حِجاه غائبُ
يا ربِّ ما هذا العناءُ واللَّدَد ... وحاجةُ المرءِ بِكِسْرةٍ تُسَدّ
لا عاصمٌ من قَدَرِ السماءِ ... بل كلُّ شيء هَدَفُ القضاءِ
والأصلُ أن يَظهر مَقْدُورُ الأزَل ... والخِطْءُ والصوابُ في الناس عِلَل
وكلُّ تأثيرٍ من الرحمنِ ... لا حُكمَ للأفلاكِ والأزمانِ
سبحان من قد حَيَّر العقولا ... بصُنْعِهِ وأعجَزَ الفُحُولا

وهذا هو الفصل الأول . وقال في الفصل السادس :

يَفْتَرُّ وَرْدٌ والهَزَارُ يَنتحِب ... يُودِي العليلُ والطَّبِيبُ يكتسِب
وجِيفةُ المَيْتِ الغنيِّ مغتَنَمْ ... يَنْتابُها العافون أمثالَ الرَّخَم
نام الغريبُ في تُرابِ الذُّلِّ ... وارتَفَقَ المُثري وسَادَ الدَّلِّ
وازدَهَر الشمعُ بمجلسِ الطَّرَبْ ... واحتَرَق الفَراشُ من ذاكَ اللَّهَبْ !
كالنَّرْجِسِ الثُّومُ تَبدَّى والبَصَل ! ... والطِّيبُ قد خُصَّ بحَبْسٍ ذي أَزَل!
قد عَزَّ في الدنيا الخسيسُ الجاهلُ ... وعاش في الذُّلِّ الحسيبُ العاقلُ!

---

(١) العفرية : العفريت . والأروية جمع رِواء وهو الرباط الذي يربط به الشيء .

وربَّ ذي جهلٍ لدولةٍ مَلَك   ورُبَّ ذي عقلٍ لِلُقمةٍ هَلَك !
قد قَبِل الناسُ اللئيمَ المفسدا   ونابذوا الشهمَ النَّصِيحَ المرشدا
كم فاضلٍ لجاهلٍ مُسَخَّرُ   وكم أديبٍ عندَهُ مُحَقَّرُ
العارفون رِزْقُهم في هَبْطِ   والظالمون عَيْشُهم في غَبْطِ
سبحان من قد خَيَّرَ العقولا   بصُنعِهِ وأعجَزَ الفُحولا

وهي على هذا النسق في اثني عشر فصلاً ، وكلُّها دُرَر وغُرَر ، ولو لم يكن له من النظم سواها لكفاه فخراً . وخلاصةُ القول فيه أنه كان عَلَماً من الأعلام ، علَّامةً في فنونه ، لم يَخْلُفه في الشهباء مثلُه . رحمه الله تعالى وأغدَق على جَدَثِه سحائبَ رضوانِه » . انتهى بزيادة خبره مع شيخه محمد البدوي ، فإني سجلته من سماعي .

١٩ - وَمِنَ العُلمَاء العُزّاب[٧]

أستاذنا وبركتنا العبد الصالح الشيخ أبو الوفاء الأفغاني ، ثم الهندي ، المولود سنة ١٣١٠ ، والمتوفى سنة ١٣٩٥ رحمه الله تعالى .

وهو العلامة المحقق الفقيه الأصولي المحدث الناقد المقرىء، السيد محمود شاه القادري الحنفي ، ابن السيد مبارك شاه القادري الحنفي ، المشهور بأبي الوفاء الأفغاني ، ذو المآثر الباقية ، والمناقب العالية .

ولد في يوم النحر من سنة ١٣١٠ في بلدة قَنْدَهار من مدن أفغانستان ، ونشأ فيها تحت رعاية والده الشيخ الجليل السيد مبارك شاه القادري ، ثم سافر إلى الهند في صغره طالباً للعلم ، فتلقى العلوم من العلماء الكبار الذين أدركهم في بلدة رامبور ، ثم سافر إلى ناحية كُجْرات ، وتلقى المعقول والمنقول من علمائها البارزين .

ثم قدم إلى مدينة حيدر آباد الدَّكَّن سنة ١٣٣٠ ، ودخل في عِداد طلبة (المدرسة النِّظَامية) فيها ، وتخرَّج بها ، وحصَّل الإجازات من شيوخها في الحديث والتفسير والفقه والقراءات بعد أن حفظ القرآن الكريم ، وكان من شيوخه فيها : الإمام الكبير الشيخ أنوار الله مؤسس (المدرسة النظامبة ودائرة المعارف العثمانية) ، والشيخ الكبير عبد الصمد ، والشيخ عبد الكريم ، والشيخ محمد يعقوب، والشيخ المقرىء الحافظ محمد أيوب ، والشيخ

الفقيه ركن الدين ، وغيرهم من أساطين العلوم في تلك الديار .

وفور تخرُّجِهِ أُسْنِدَ إليه التدريسُ والتعليم في المدرسة النظامية نفسها ، فزامل شيوخَه ، ودرَّس الآدابَ العربية والفقه والحديث الشريف ، وعلَّم وأفاد الطلاب والمستفيدين سنين طوالاً وأجيالاً متتابعة .

ثم رأى أن يؤسس هناك «لجنة إحياء المعارف النعمانية» لِيَنْشُرَ تحت إشرافِها آثَارَ سلفنا المتقدمين من الفقهاء والمحدثين ، فأسَّس تلك اللجنة بمساعدة من زملائه ، وقامت بطبع كثير من الكتب النفيسة ، من فرائد مؤلفات أئمة القرن الثاني والثالث وما بعدهما ، وكان هو رئيسَ اللجنة بل كان هو اللجنةَ والقائمَ بأعمالها وإنجازاتها خير قيام ، يَبذل لها من وقته وماله وعلمه ما استطاع ، متطوعاً محتسباً لوجه الله تعالى .

وأنعم الله تعالى عليه بالحج إلى بيته الحرام ، فقصد الحجاز الشريف حاجاً ومعتمراً ، والتقى بزمرة كبيرة من أفاضل علماء الإسلام ، وأخذ عنهم وأخذوا عنه ، واتسعت شُهرتُه في آفاق أهل العلم ، فكان يلاقي العون من جميع الجهات العلمية ، التي يكاتبها بشأن ما يبتغيه من المخطوطات والآثار النادرة ، حتى اجتمع لديه مكتبة غنية في الفقه الحنفي والحديث والرجال والتاريخ وغيرها من العلوم الاسلامية .

ونَشَر من النوادر الغالية بتحقيقه وتعليقه : كتابَ الآثار للإمام القاضي أبي يوسف المتوفى سنة ١٨٢ رحمه الله تعالى ، وكتاب الرد على سِيَر الأوزاعي لأبي يوسف أيضاً، وكتاب اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى لأبي يوسف ، وكتابَ الأصل للإمام محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٧ رحمه الله تعالى ، في عِدَّة مجلدات كبار ، وكتاب الجامع الكبير له أيضاً ، وشَرَح كتاب الآثار للإمام محمد بن الحسن الشيباني ، وانتهى فيه إلى أواخر الجنائز بحلول وفاته رحمه الله تعالى .

وحقَّق كتاب مختصر الطحاوي في فقه الحنفية في مجلد كبير ، والجزء الثالث من التاريخ الكبير للإمام البخاري ، وكتاب النفقات للجصاص ، وأصول الفقه للسرخسي في مجلدين ، وشرح الزيادات للسرخسي ، ومناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد للحافظ الذهبي .

وأشرف على طبع كتاب الحجة على أهل المدينة للإمام محمد بن الحسن الشيباني ، الذي حقَّقه وعلَّق عليه الإمام المحدث الفقيه المفتي مهدي حسن ، في أربعة مجلدات كبار ، وعلى كتاب أخبار أبي حنيفة وأصحابه للإمام المحدث القاضي أبي عبد الله الصيمري المتوفى سنة٤٣٦ . وعلى كتاب عُقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان للحافظ المحدث محمد بن يوسف الصالحي الشامي الشافعي المتوفى سنة ٩٤٢ ، وعلى غيرها من الكتب النافعة النادرة .

واتخذ من نشر هذه النفائس والفرائد سلوةً له عن الائتناس بالزوجة والأولاد ، وعاش عَزَباً فريداً ، متبتلاً متعبداً ، زاهداً ورعاً ، قائم الليل ، محافظاً على السنن النبوية كلَّ الحفاظ ، يكره ترك المستحبات ، ويَعمُر أوقاته بالمطالعة والإفادة ، والتحقيق والتعليق ، وتلقين العلم لشباب العلماء والمستفيدين ، يقول كلمة الحق ، ولا يخاف في الله تعالى لومة لائم .

وكان جميل الطلعة ، منوَّرَ الشيبة ، دخلتُ عليه بيتَه في حيدر آباد الدَّكَن بالهند ، فرأيته بيتاً متواضعاً خاوياً إلا من الكتب : مخطوطِها ومصوَّرها ومطبوعها ، وهي جاثمة حواليه يَنهَلُ منها ويَعُلُّ ، ويُقدِّم ثمرات علمه للناس عَسَلاً مصفًّى .

أما مَنامُه فهو على سرير متواضع من حبال ، يرتفع به عن النوم على الأرض ، لضعفِ جسمه ومرضه ، ومطعمُه لُقَيمات ، وأكلُه في العشيَّات ، وليلُه للمناجاة ، تَغمُرُه القناعةُ والرضا على معيشته التي هو عليها ، لا يُزعجه

مزعج من نداء كبير أو صغير ، أو مُطالبةِ امرأة أو وليد ، همُّه الازديادُ من العلم ، والسعيُ في نشره وإشاعتِه ، وما زال هكذا عيشُه ، حتى أدركه الأجل في صباح يوم الاربعاء ١٣ من شهر رجب سنة ١٣٩٥ ، فلحق بجوار الله تعالى ، رحمه الله تعالى ورضي عنه وجعَلَه في عِلّيين .

استفدتُ جُلَّ هذه الترجمة مما كتبه الأخ الفاضل الشيخ أبوبكر الهاشمي ، أحد الملازمين لشيخنا أبي الوفاء الأفغاني ، في آخر الجزء الثاني من كتاب « الآثار » للإمام محمد بن الحسن الشيباني بتعليق الشيخ أبي الوفاء وشرحه ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ، دون أن يذكر فيها اسمَه ، حفظه الله ونفع به .

٢٠ - ومن العلماء العزاب

العالمةُ الفاضلة ، والمحدِّثةُ الكاملة : كَرِيمةُ بنتُ أحمد بن محمد بن حاتم المَرْوَزِيَّة ، الملقَّبةُ بأمِّ الكرام وسِتِّ الكرام ، المولودةُ بمَرْوفي سنة ٣٦٥ ، والمتوفاةُ بمكة المكرمة سنة ٤٦٣ رحمها الله تعالى . ترجم لها الحافظ ابن الجوزي في « المنتظم » ٨: ٢٧٠ ، في حوادث سنة ٤٦٣ ، فقال رحمه الله تعالى :

« وتُوفِّيَتْ بمكة في هذه السنة : كريمةُ بنتُ أحمد بن محمد بن أبي حاتم المروزية ، من أهل كُشْمِيْهَن ، قرية من قرى مَرْو ، وكانت عالمةً صالحة ، سَمِعَتْ أبا الهيثم الكُشْمِيْهَنيَّ وغيرَه ، وقرأ عليها الأئمةُ كالخطيب ، وابن المطلب ، والسَّمْعاني ، وأبي طالب « الزينبي » . انتهى .

وقال الحافظ الذهبي في « العِبَر » ٣ : ٢٥٤ ، في حوادث سنة ٤٦٣ أيضاً : « وفيها تُوفِّيتْ كريمةُ بنتُ أحمد بن محمد بن حاتم ، أمُّ الكرام المَرْوَزِيَّة[1] المجاوِرَةُ بمكة ، رَوَتْ « الصحيح » ـ أي صحيح البخاري ـ عن

---

(١) هكذا جاءت نِسبتُها في غير كتاب : (المَرْوَزِيَّة) ، وهذه النسبة إلى (مَرْوِ الشَّاهِجَان)، وترجم لها الزركلي في « الأعلام » ٦: ٧٨ ، ونَسَبَها بقوله : « المَرُّوْذِيَّة » . أي بالراء المشدَّدة المضمومة ، فالواو الساكنة ، فالذال المعجمة ، وقال : « وأصلُها من مَرْوِ

الكُشْمِيهَني ، ورَوَتْ عن زاهر السَّرْخسِي ، وكانت تَضبِطُ كتابهَا ، وتُقابِلُ نُسَخها ، ولهافَهْمٌ ونباهة ، وما تَزَوَّجَتْ قط ، وقيل : إنها بلَغَتْ المئة ، وسَمِعَ منها خَلْق » .

الخاتمة

وبعدُ : فهؤلاء العلماءُ العُزَّابُ الذين ذكرتُ تراجمَهم هنا، هم من كبار أئمة علوم الإسلام ، ومن أساطين علماء الشريعة ، ومن أركان أهل الدين والتقوى، والصلاح ، وهم ممن لا يَخفى عليهم فضلُ الزواج على العُزُوبة في الشرع الحنيف ، بل قد دَوَّن الفقهاء منهم في كتبهم ومؤلفاتهم فضائلَ النكاح وما وَرَدَ فيه من ترغيب وتحبيب وحضّ وأَمْر .

الرُّوْذ » . انتهى . فإن صَحَّ هذا فيكون الصواب فيها كما قال : (المَرُّوْذِيَّة) ، ولكن الكتب كلها تتفقُ على ذكرها :(المَرْوَزِيَّة) .

وبعد كتابتي لما تقدم وقفتُ على ما كتبه الأخ العالم الفاضل الدكتور محمود الطَّناحي ، على « العِقد الثمين في تاريخ البلد الأمين » لتقي الدين الفاسي ٨ : ٣١٠ ، على ترجمة (كريمة المروزية) ، وذكَرَ فيه قولَ الأستاذ الزركلي ، ثم تعقَّبه بقوله :

« ولم أجد أحداً ممن ترجم لها ذكَرَ ذلك ، وقد ترجم لها في « الكامل » و« العِبَر » و« الشذرات » و« البداية والنهاية » و« تاج العروس » في (كرم) ٩ : ٤٣ ، وكلهم على أنها (المروزية) ، ثم نظرت في « الوافي بالوفيات » مصورة معهد المخطوطات ج ٢٤ ، فوجدتُها أيضاً فيه : (المروزية). انتهى . فما قاله الأستاذ الزركلي رحمه الله تعالى وَهَمٌ لا يُلتَفتُ اليه .

وهناك محدِّثة أخرى : (كريمة) متأخرة عن هذه ، تُسَمَّى : (كريمة الشامية) ، ذكرها الذهبي في وفَيات « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١٤٣٤ ، فقال في وفيات سنة ٦٤١ « وفيها ماتَتْ مُسنِدةُ الشام أمُّ الفضل ، كريمةُ بنتُ المحدِّث عبد الوهاب بن علي بن الخَضِر ، القرشية الزبيرية ، توفيت سنة ٦٤١ عن ٩٥ سنة » انتهى .

و(كريمة) الشامية هي التي سَمِعَ منها الحافظُ أبو شامة المقدسي ، الواردُ اسمُها مجرداً في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ٤ : ١٤٦١ ، و« طبقات الحفاظ » للسيوطي ص ٥٠٧ . وقد غَلِطَ الغلطَ الفاحشَ محققُ هذه « الطبقات » ! فَسَمَّى في الفهارس فيها ص ٦٣٨ (كريمة) التي سَمِعَ منها أبو شامة : (كريمة بنت أحمد المروزية) ! وهذا خطأ بيِّن ، فكريمةُ المروزية ماتت سنة ٤٦٣ ، وأبو شامة ولد سنة ٥٩٩ ، فأنَّى يَسمعُ ممن ماتَتْ قبلَه بنحو قرنٍ ونصف ؟ !

فاختيارُهم العزوبةَ على الزواج ، مع علمهم وصلاحهم ، ورجولتهم وسلامتهم ، ما كان إلا إيثاراً منهم لغيرهم على أنفسهم، ليُفرِّغوا كل طاقاتهم لخدمة الدين والعلم ، وليبذلوا أقصى جهدهم في بيان الشريعة الغَرَّاء وتدوينها وتقديمها للناس . ولا شك أن الإيثار مشروع في الإسلام ، ومحمودٌ فاعلُه ، فكم لـهم من المِنَّة والفضل في رقاب العلماء والناس .

وإذا كان الزواج أغضَّ للبصر وأحصن للفرج ، فقد أكرمهم الله تعالى بلباس التقوى والصلاح والزهد ، وحلَّاهم بحِلية العلم والعمل ، فكان ما هم عليه من الخير مؤدِّياً إلى ذلك بفضل الله وبرحمته .

وإذا كان في القُرب من الزوجة إيناسٌ لرُوح الرجلِ الزوج ، فقد رأوا في القرب من الكتاب والعلم إيناساً مثلَ ذلـك أو فوقَ ذلك ، حتى قال بعضهم :

كـتـابٌ أُطـالِـعُـهُ مـؤنِسٌ ... أَحَـبُّ إلـيَّ مـن الآنِـسَـهْ
وأدْرُسُـه فـيُـريـنـي الـقُـرُو ... نَ حُضـوراً وأعـظمُهُمْ دَارِسَه

وإذا كان في الزواج حصولُ النَّسل والاولاد ، وبقاءُ الذكر بعد الوفاة ، فقد استعاضوا عن النسل والأولاد بما أبقوه من الكتب والمؤلَّفات .

قال أبو الفتح البُسْتي رحمه الله تعالى في هذا المقام :

يقولون : ذِكرُ المرءِ يَحيا بنَسْلِهِ ... وليس له ذِكرٌ إذا لم يكن نَسْـلُ
فقلتُ لهم : نَسْلي بدائعُ حكمتي ... فـإنْ فـاتَنَـا نَسْـلٌ فـإنَّـا بِـه نَسْلُو

أورده المرتضى الزبيدي في « شرح الإحياء »٦ : ٤٨٣ ، ٥٦٨ .

وقال شهاب الدين أبو الطيب أحمد بن محمد ، المعروف بالشهاب الحجازي ، العالم المتفنن ، والشاعر المفلِق ، ذو التصانيف العديدة

والمباحث المفيدة ، المولود سنة ٧٩٠ ، والمتوفى سنة ٨٧٥ رحمه الله تعالى :

قالوا : إذا لم يُخلِّفْ ميِّتٌ ذَكَراً يُنسَى ، فقلتُ لهم في بعض أشعاري :
بعدَ المماتِ أُصَيحابي ستذكرني بمــا أُخلِّفُ من أولادِ أفكــاري

أورده السخاوي له في ترجمته في « الضوء اللامع » ٢ : ١٤٨ .

وتقدم في ترجمة الزمخشري في ص ٧٨ قولُه مفضِّلاً مؤلَّفاته على البنين والبنات ، لأنها مبرَّأة من العُقوق والمُتْعِبات ، وذلك في قوله من أبيات :

مـا نَسْـلُ قلبي كنَسْـل صُلْبي مـن قـاسَ رُدَّ لـه قِياسَـه
كـم بيـن ذي مَسْـلَكٍ طَـهُـورٍ وسـالـكٍ مَسْلَكَ الـخَسـاسَـه
مـن سـاس أبـنـاءَه فـإنَّـا لـهـؤلاء الـبـنـيـنَ سـاسَـه

وفي قوله أيضاً :

وحَسْبي تصـانيفي وحَسْبي رُواتُها بَنِين بهم سِيقَتْ إليَّ مـطالبي
إذا الأبُ لم يأمَنْ من ابنٍ عُقوقَه ولا أن يَعُقَّ الإبنَ بعضُ النوائبِ
فـإنـي منـهم آمِـنٌ وعـليـهـمُ ، وأعقـابَهـم أرجـوهم لـلعـواقبِ

وقال الإمام ابن الجوزي في أوائل كتابه « صيد الخاطر » ص ٢٠ : « ينبغي للإنسان أن يَسعى في تحصيل ذريَّةٍ تَذْكُرُ الله تعالى بعدَه ، فيكونَ الأجرُ له ، أويُصنِّفَ كتاباً من العلم ، فإنَّ تصنيفَ العالم ولَدُهُ المخلَّد ، يُنقَلُ من كتابه ما يقتدي الغيرُ به ، فذلك الذي لم يَمُت :

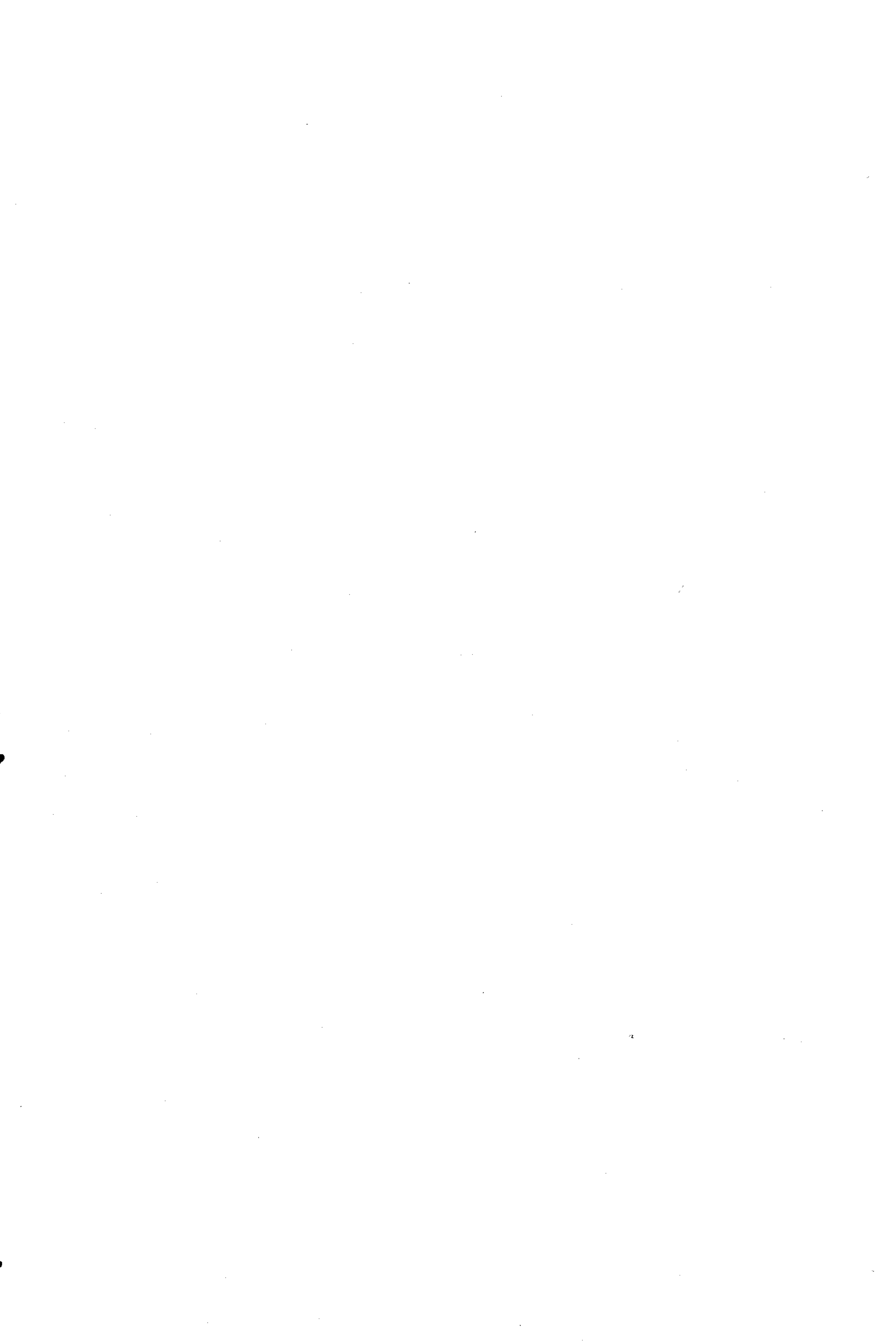
قد مات قومٌ وهم في الناسِ أحياءُ ! »

* * *

وبعدُ فهذا ما تيسَّر اختيارُه من تراجم العلماء العُزَّاب الكبار ، وأخبارِ احتراقهم بالعلم ، جَمعتُه رجاءَ أن يكون حافزاً لمن يقف عليه من شباب أمتنا الإسلامية ، من ذوي العلم والفطانة والهمة القعساء في مختلِفِ العلوم ، فتَتحرَّكَ هِمَمُهم إلى العَلْياء ، وتأخُذَ عَزَماتُهم إلى الصَّعْداء ، ويكونَ هذا الكتابُ خيرَ حافزٍ لهم على تجديد الدين ونشرِ علومه وفضائله وآثاره ، واستعادة الريادة والسيادة والقيادة ، ويكون من ذلك الخيرُ العميمُ للإنسانية ، والله ولي التوفيق .

* * *

يقول جامعه العبد الضعيف الفقير إلى اللّه تعالى : عبد الفتاح بن محمد أبو غدة : فرغتُ من جَمْع هذا الكتاب والنظرِ فيه لَيلَةَ يوم الجمعة ١٤ من جمادى الأولى سنة ١٤٠١ في مدينة الرياض ، جعله الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم ، ونفعني به يومَ القدومِ عليه ، ﴿ يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بَنُونَ إلا من أتى اللّهَ بقلبٍ سليم ﴾ ، آمين .



المحتوى

١ - المصَادرُ وَالمرَاجع

اقتصرتُ فيها على ما عزوتُ إليه بالجزء والصفحة ،
وما طُبع منها بالقاهرة أغفلتُ ذكرَ بلده .

١ - الآثار للإمام محمد بن الحسن الشيباني . طبع لجنة إحياء المعارف النعمانية بالهند ١٣٩٥

٢ - الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي . مطبعة المنار ١٣٤٨ .

٣ - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي . دار المعرفة في بيروت دون تاريخ .

٤ - أزهار الرياض في أخبار عياض للمَقَّري . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٨ .

٥ - أساس البلاغة للزمخشري . مطبعة أولاد أورفاند ١٣٧٢ .

٦ - الأعلام لخير الدين الزركلي . الطبعة الثانية المنتهية طبعاً ١٣٧٨ .

٧ - إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء للطباخ . المطبعة العلمية بحلب ١٣٤٥ .

٨ - الاعتصام للإمام الشاطبي طبعة مطبعة السعادة أو طبعة مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، كلاهما دون تاريخ .

٩ - إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل

إبراهيم ، دار الكتب المصرية ١٣٧٤ .
١٠ ـ الأنساب للسمعاني . دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدَّكَّن بالهند ١٣٨٢ .
١١ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير . السعادة ١٣٥١ .
١٢ ـ تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبِيدي . الخيرية ١٣٠٦ .
١٣ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي . السعادة ١٣٤٩ .
١٤ ـ تبصير المنتبه بتحرير المشتبه للحافظ ابن حجر . الدار المصرية للتأليف والترجمة دون تاريخ .
١٥ ـ تتمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي . المطبعة الوهبية ١٢٨٥ .
١٦ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي . الطبعة الثالثة حيدر آباد الدكن ١٣٧٥ .
١٧ ـ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة . حيدر آباد الدكن ١٣٥٣ .
١٨ ـ ترتيب ثقات العجلي لتقي الدين السبكي (مخطوط) .
١٩ ـ تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر . حيدر آباد الدكن ١٣٢٥ .
٢٠ ـ تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري . المؤسسة المصرية العامة للتأليف ١٣٨٤ .
٢١ ـ الجمهرة في اللغة لابن دريد . حيدر آباد الدكن ١٣٤٤ .
٢٢ ـ الجواهر المُضِيَّة في طبقات الحنفية للقرشي . حيدر آباد الدكن ١٣٣٢ .
٢٣ ـ الحجة في عِلَل القراءات السبع لأبي علي الفارسي . طبع القاهرة بعد سنة ١٣٨٤ دون اسم مطبعة ولا تاريخ طبع .
٢٤ ـ الخصائص في النحو والعربية لابن جني . دار الكتب المصرية ١٣٧٦ .
٢٥ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للخزرجي . بيروت الطبعة الثالثة ١٣٩٩ .

٢٦ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر . الطبعة الثانية حيدر آباد الدكن ١٣٩٢ .

٢٧ ـ ذيل طبقات الحنابلة للحافظ ابن رجب . مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٢ .

٢٨ ـ الزمخشري للدكتور أحمد الحَوْفي . دار الفكر العربي ١٩٦٦ .

٢٩ ـ سنن الترمذي . طبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٤ .

٣٠ ـ السيد البدوي للدكتور عبد الحليم محمود . القاهرة دون تاريخ .

٣١ ـ سِيَر أعلام النبلاء للذهبي . مؤسسة الرسالة ببيروت ١٤٠١ .

٣٢ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي . مكتبة القدسي ١٣٥٠ .

٣٣ ـ شرح إحياء علوم الدين للزَّبِيدي . الميمنية ١٣١١ .

٣٤ ـ شرح ألفية الحديث للحافظ العراقي . فاس ١٣٥٤ .

٣٥ ـ شرح صحيح مسلم للإمام النووي . المطبعة المصرية ١٣٤٧ .

٣٦ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين للدكتور صلاح الدين المنجد . دار الكتاب الجديد ببيروت ١٩٧٦ .

٣٧ ـ الصحاح في اللغة للجوهري بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار دار الكتاب ١٣٧٦ .

٣٨ ـ صحيح الإمام البخاري بشرح فتح الباري . المكتبة السلفية ومطبعتها ١٣٨٠ .

٣٩ ـ صحيح الإمام مسلم . المطبعة المصرية ١٣٤٧ .

٤٠ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي تحقيق محمد الغزالي . دار الكتب الحديثة بمصر دون تاريخ .

٤١ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . مكتبة القدسي ١٣٥٥ .

٤٢ ـ طبقات الحفاظ للسيوطي بتحقيق علي محمد عمر . مطبعة الاستقلال الكبرى ١٣٩٣ .

٤٣ ـ طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى . مطبعة السنة المحمدية دون تاريخ .

٤٤ ـ طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي . مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٢ .

٤٥ ـ طبقات المفسرين للداودي . مطبعة الاستقلال الكبرى ١٣٩٢ .

٤٦ ـ طبقات المفسرين للسيوطي بتحقيق علي محمد عمر . مطبعة الحضارة العربية ١٣٩٦ .

٤٧ ـ العِبَر في خَبَر من عَبَر للحافظ الذهبي . طبع حكومة الكويت ١٣٨٠ .

٤٨ ـ العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد بن حنبل . جامعة أنقرة في تركيا ١٣٨٢ .

٤٩ ـ غريب الحديث لأبي عُبَيد القاسم بن سلَّام . حيدر آباد الدكن ١٣٨٤ .

٥٠ ـ الفائق في غريب الحديث للزمخشري . عيسى البابي الحلبي ١٣٦٤ والطبعة الثانية ١٩٧١ م .

٥١ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر ، المتقدم برقم ٣٨ .

٥٢ ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي . الحسينية المصرية ١٣٤٤ .

٥٣ ـ كنوز الأجداد لمحمد كُرْد علي . مطبعة الترقي بدمشق ١٣٧٠ .

٥٤ ـ لسان العرب لابن منظور . طبعة بولاق ١٣٠٠ .

٥٥ ـ لسان الميزان للحافظ ابن حجر . حيدرآباد الدكن ١٣٢٩

٥٦ ـ مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار لمحمد طاهر الفَتَّني الهندي . دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن بالهند ١٣٨٧ .

٥٧ ـ المخصَّص في اللغة لابن سيده . مطبعة بولاق ١٣١٦ .

٥٨ ـ المستدرك على الصحيحين للحاكم . حيدر آباد الدكن ١٣٣٤ .
٥٩ ـ المسند للإمام أحمد. المطبعة الميمنية ١٣١٣ .
٦٠ ـ المسند للإمام أحمد بتعليق الشيخ أحمد شاكر . دار المعارف ١٣٦٨ .
٦١ ـ المصباح المنير في اللغة للفيومي . مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٦٩ .
٦٢ ـ المصنوع في معرفة الحديث الموضوع لعلي القاري . الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة ببيروت ١٣٩٨ .
٦٣ ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي . دار المأمون ١٣٥٥ .
٦٤ ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي . طبعة الدكتور مرجليوث بمطبعة هندية بالقاهرة ١٩٣٠ .
٦٥ ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس . مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٦٦ .
٦٦ ـ المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي . دار الأدب العربي ١٣٧٥ .
٦٧ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم . دار القلم ببيروت ١٣٩٠ .
٦٨ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي . مطبعة عيسى البابي الحلبي دون تاريخ .
٦٩ ـ نزهة الألباء في تراجم الأدباء لابن الأنباري بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم دار نهضة مصر ١٣٨٦ .
٧٠ ـ نزهة الألباء في تراجم الأدباء لابن الأنباري بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي . الطبعة الثانية ببيروت ١٩٧٠ .
٧١ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير . مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣ .

٧٢ ـ هدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر . دار الطباعة المنيرية ١٣٤٧ .

٧٣ ـ الوابل الصيِّب من الكلم الطيب لابن القيم . دار الطباعة المنيرية ١٣٥٧ .

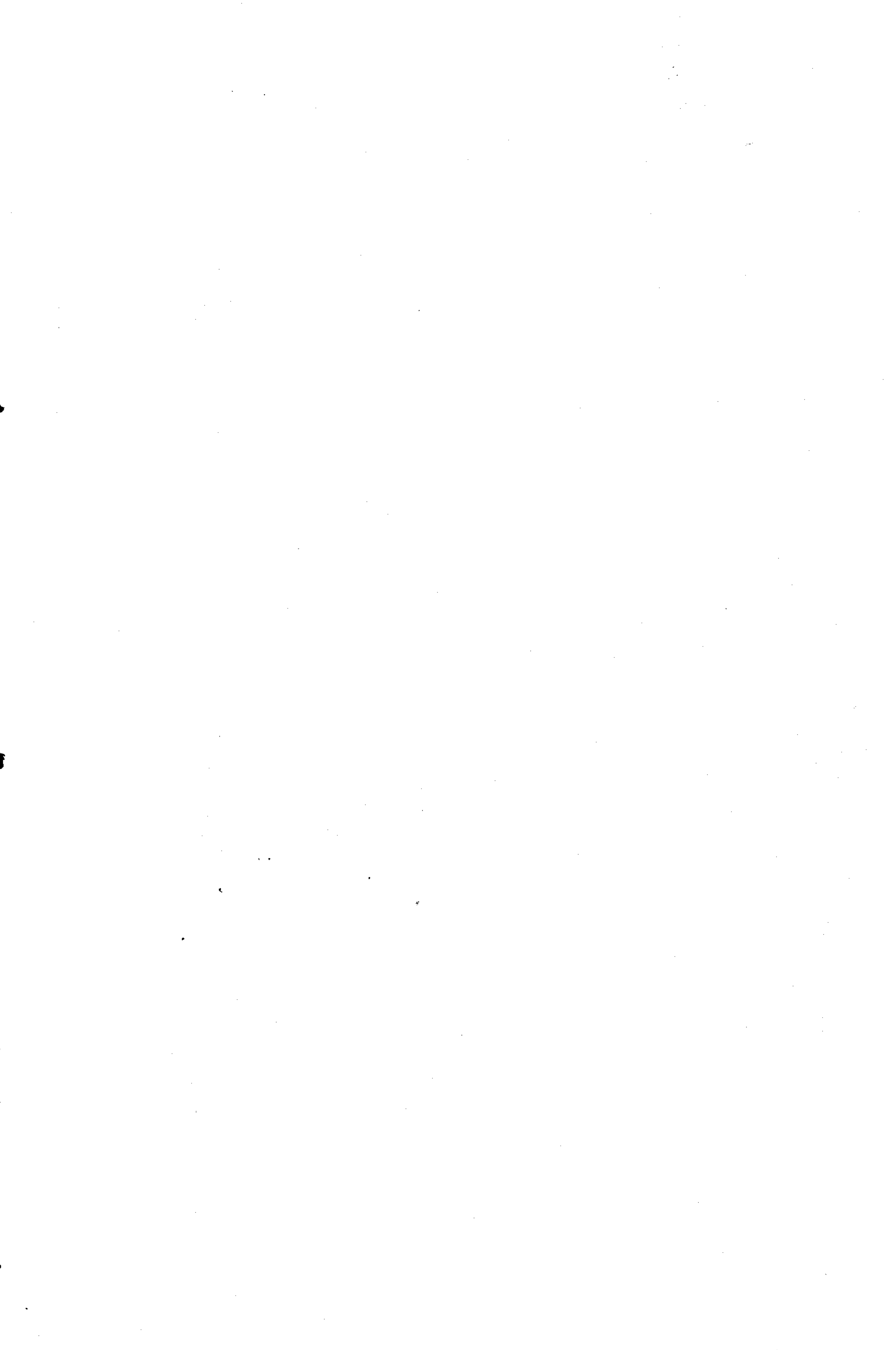
٧٤ ـ الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي . طبعة فرانز في تركيا ١٣٨١ .

٧٥ ـ وفيات الأعيان للقاضي ابن خلكان . المطبعة الميمنية ١٣١٠ .

٢ ـ أسماء العلماء العُزَّاب المترجَمِينَ وما حَوَتْه تراجِمُهُم من الفوائد

الصفحة

* * *



صدر عن مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة :

١ ـ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للإمام اللكنوي الطبعة الثالثة مزيدة ومحققة .
٢ ـ الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة . في علوم الحديث للإمام اللكنوي أيضاً .
٣ ـ إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة للإمام اللكنوي أيضاً . الطبعة الثانية .
٤ ـ رسالة المسترشدين للإمام الحارث بن أسد المحاسبي في الأخلاق والتصوف النقي . نفدت الطبعة الثالثة ، وستصدر الطبعة الرابعة محققة ومزيدة كثيراً جداً عما قبلها.
٥ ـ التصريح بما تواتر في نزول المسيح للإمام محمد أنور شاه الكشميري . الطبعة الثالثة .
٦ ـ الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام للإمام القرافي.
٧ ـ فتح باب العناية بشرح كتاب النُقاية في الفقه الحنفي للإمام علي القاري المكي .
٨ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف للإمام محمد بن قيم الجوزية الطبعة الثانية.
٩ ـ المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للإمام علي القاري أيضاً ، الطبعة الثانية .
١٠ ـ فقه أهل العراق وحديثهم للعلامة المحقق الإمام الشيخ محمد زاهد الكوثري .
١١ ـ مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة. وهو بحث جديد في بابه يهم كل محدِّث .
١٢ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ الخزرجي خير كتب الرجال المختصرة بتقدمه واسعة للأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . الطبعة الثالثة .
١٣ ـ صفحات من صبر العلماء للأستاذ أبو غدة . تصدر الطبعة الثالثة مزيدة ومحققة .
١٤ ـ قواعد في علوم الحديث للعلامة المحدث الفقيه ظفر أحمد العثماني التهانوي .
١٥ ـ كلمات في كشف أباطيل وافتراءات بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة أيضاً .
١٦ ـ قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين لتاج الدين السبكي الطبعة الثالثة .
١٧ ـ المتكلمون في الرجال للحافظ المؤرخ شمس الدين عبد الرحمن السخاوي .
١٨ ـ ذكرُ مَن يعتمد قوله في الجرح والتعديل للحافظ المؤرخ الإمام الذهبي .
١٩ ـ العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة .

وسيصدر بعون الله تعالى قريباً بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة :

١ ـ تحفة الأخيار في إحياء سنة سيد الأبرار للإمام محمد عبد الحي اللكنوي أيضاً .
٢ ـ ترتيب ثقات العجلي للإمام تقي الدين السبكي والحافظ نور الدين الهيثمي .
٣ ـ نماذج من رسائل الأئمة وأدبهم العلمي . جمعها وحققها الأستاذ أبو غدة .
٤ ـ الرسول المعلِّم صلى الله عليه وسلم وأساليبه في التعليم للأستاذ أبو غدة أيضاً .
٥ ـ فتح باب العناية بشرح كتاب النُقاية للإمام علي القاري المكي : الجزء الثاني .